السنة الثالثة

العدد الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون: ٢٤٤٥٥

الاشتراكات

١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

يونيه سنة ١٩٥٤

شوال سنة ١٣٧٣

حقائق ثلاث

أذكر حين كانت « محطة إذاعة » كراتشي تفسح من صدرها لأتحدث عن الإسلام أني تلقيت رسالة من فتاة فاضلة في الأرجنتين تقول فيها : « إني مواظبة على الاستماع إلى أحاديثك كمواظبتي على الاستماع إلى الأحاديث الدينية من المحطات العربية التي تصل موجاتها إلينا ، ولكني لاحظت من نفسي مع أحاديثك معنىً أردت أن أصارحك به . . . . ذلك أني أحسّ بعد كل حديث منها بأن في عنقي أمانة ، وبأني مسئولة أن أعمل ، ويعلأني شعور منهض إلى العمل ، ولكني لا أتبين الطريق . . . أرجو ألا تظن بي الظنون فأنا والحمد لله مستقيمة في خاصة نفسي ، ولكني أصبحت أشعر أن ذلك لا يكفي ، وشعوري يزداد كل يوم ، وهاأنذي أكتب إليك لتبين لي ماذا تريد من وراء أحاديثك ، وأعدك أن أضع ما تقوله موضع التنفيذ . . . في حدود قدرتي طبعاً كفتاة من أصل عربي ، تعيش في أرض غريبة . . . » .

وأذكر كذلك أني تلقيت دعوة مفاجئة من السيد « دين محمد » وكان إذ ذاك

السنة الثالثة

العدد الثامن

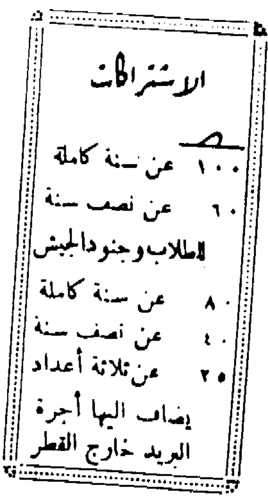
بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد



الاشتراكات

قرش

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

يونيه سنة ١٩٥٤

شوال سنة ١٣٧٣

حقائق ثلاث

أذكر حين كانت « محطة إذاعة » كراتشى تفسح من صدرها لأتحدث عن الإسلام أنى تلقيت رسالة من فتاة فاضلة فى الأرجنتين تقول فيها : « إنى مواظبة على الاستماع إلى أحاديثك كمواظبتى على الاستماع إلى الأحاديث الدينية من المحطات العربية التى تصل موجاتها إلينا ، ولكنى لاحظت من نفسى مع أحاديثك معنىً أردت أن أصارحك به .... ذلك أنى أحسّ بعد كل حديث منها بأن فى عنقى أمانة ، وبأنى مسئولة أن أعمل ، ويملأنى شعور منهض إلى العمل ، ولكنى لا أتبين الطريق ... أرجو ألا تظن بى الظنون فأنا والحمد لله مستقيمة فى خاصة نفسى ، ولكنى أصبحت أشعر أن ذلك لا يكفى ، وشعورى يزداد كل يوم ، وهاأنذى أكتب إليك لتبين لى ماذا تريد من وراء أحاديثك ، وأعدك أن أضع ما تقوله موضع التنفيذ ... فى حدود قدرتى طبعا كفتاة من أصل عربى ، تعيش فى أرض غريبة ... » .

وأذكر كذلك أنى تلقيت دعوة مفاجئة من السيد « دين محمد » وكان إذ ذاك

حاكم السند ، فلما اجتمعت به رأيت إلى جانبه رسالة كنت كتبتها بالإنجليزية عنوانها : « ماأنت ؟ »[1] وقال لى : هذه الرسالة هى التى جعلتنى أدعوك ، فإنى شعرت بعد قراءتها أنك تهدف إلى أكثر مما قلته فيها ، فأردت أن أعرف منك ماذا تريد ، وأرجو أن تنسى أنى « حاكم » فإن الذى يربطنى بالإسلام أوثق من الذى يربطنى بكرسى الحكم !

هاتان الحادثتان على بساطتهما أثرتا فى نفسى ، وجعلتانى أتأمل طويلا معالم التأثير الممكن للكلام والكتابة فى جوين مختلفين تماما من حيث الشخص والبيئة ، وإن لم يختلف فيهما القصد والغاية ! حقائق ثلاث تبدت لى واضحة من خلال هاتين الحادثتين البسيطتين :

أولاها : أن للنفس عدوى تقابل مايعرف الناس من عدوى الداء فى عالم الحس ، وإن كانت عدوى النفس لاتراها العين ، ولا تقع جراثيمها تحت أجهزة المادة . . . إنها عدوى تكمن جرثومتها فى حقيقة الإنسان من وراء قلمه ولسانه ، وقد تسرى فى كلمة لايعنيها ، أو فى حركة عارضة يأتيها ، أو فى سمته العام الذى لايملك منه مهربا مهما زوّق كلامه ومهما تكلّف فى مظهره ؛ والناس محكومون بأنفسهم رضوا أو كرهوا ، وطوايا أنفسهم أقوى دائما من كل مظهر يتخذونه ؛ وكما ترسل الشمس أشعتها فتُعرف بها ويُستدل بظلال الأشياء على جهتها ، كذلك تفرض النفس حقائقها فتبدو سافرة حينا ويُستدل عليها بظل صاحبها حينا آخر . . . . وإنك حين تتأمل القرآن كله تجده يردّ إلى حقيقة هذه النفس مظاهر الأخلاق جميعا ، واقرأ — مثلا — قول الله سبحانه « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم : تشابهت قلوبهم » أى تشابهت قلوبهم فتشابه قولهم وتشابهت جريمتهم . وفى ذلك يقول ابن عطاء : « كل كلام يخرج وعليه كسوة القلب الذى منه برز » .

---

(١) لا تزال هذه الرسالة تنشر فى القسم الإنجليزى من « المسلمون » مسلسلة من أول السنة الثالثة .

ومن هنا يبدو وجه المسئولية الرهيبة التى يتحملها الدعاة إلى الإسلام ، فإنهم أمناء أولاً على أنفسهم ، مسئولون أولاً أن يحكموها بما يدعون الناس إليه قبل أن يدعوهم ، وأن يذكروا أن القوانين التى تحكم حركات النفوس قوانين قاسرة لا يبطلها زخرف القول ولا براعة الأسلوب ، وعليهم دائما وهم يخاطبون أنفس الناس أن يرقبوا الناحية التى يُدخل منها على النفس ! إنها الناحية التى يصدر منها ما يقولون وما يكتبون . . . . فليتقوا الله فى هذه الناحية ، وليعلموا أن صدقها يزرع الصدق ، وأن كذبها لا يصنع إلا الأثر الكاذب ، وأن من وراء ما يقولون ويكتبون عين الله التى ترقب حركات النفوس ، والتى لا تبالى بالكلمة إلا بمقدار ما تصدق فى صاحبها . وهى حين تصدر صادقة فقد أصبحت وديعة فى يد الله الذى دعا إلى الصدق : وهو وحده الذى يهدى بها من يشاء ، ولا سلطان لغيره على قلوب الناس « إن علينا للهُدى » . أما حين تصدر كاذبة فقد انقطع طريقها إلى الله ، وبقيت بكذبها حجة على صاحبها وحده دون سواه .

***

والحقيقة الثانية هى أن المسلمين على اختلاف أشخاصهم ومنازلهم ، وعلى اختلاف بيئاتهم التى يعيشون فيها ، ينطوون على استمداد هائل للبعث والنهوض ، ولكنهم يحتاجون فقط إلى الروح الباعث المنهض ، وإلى الدعوة الحية التى تبحث عنهم حيث كانوا ، وتلح عليهم بالتذكير بالله ونبيه وكتابه ، وبمسئوليتهم بين يديه ، وتعرض عليهم صفحة الماضى الناصع الذى نسوه ، والحاضر المرير الذى هم فيه ، وتدأب على ذلك دأب الداعية الأول صلى الله عليه وسلم ، وتصبر كما صبر .

هذه الدعوة تحتاج فى طبيعتها إلى أمرين لا بد منهما : إلى « ربانية » تحكم أسلوب الخطاب والعمل ، وإلى « الروح الباعث » الذى يبقى مشتملا فى كل معنى تعرض له ، وفى كل قضية تشتغل بها ، وفى كل مجال تدخله .

ولست أعنى بالربانية دروشة الطقوس التى قتلت المسلمين ، ولكنى أعنى بها دعوة الله فى كتابه : « ولكن كونوا ربانيين » والربانية فى دعوة الكتاب هى

البدهية الأولى فى هذا الدين ، وهى الواحد الصحيح فى علم الحساب عند المسلمين ، فإن شعور الإنسان بالله هو رأس النبع لكل الفضائل والخير ، فضلا عن أنه واجبه الأول نحو خالقه ومُحييه ، وغفلته عنه هى العمى الذى لا يُغنيه بعده بصره ولا علمه ولا قوى الأرض مجتمعة . . . أرأيت إلى رجل يجهل الواحد الصحيح ، كيف يسوغ لمثله أن يدّعى العلم بالحساب والجبر واللوغاريتمات وما بُنى عليها ؛ أرأيت لو أنه بدأ من الواحد فعَلِمَهُ ، ثم انتقل منه إلى ما يأتى بعده ، ثم أسس مسألة على مسألة ، ومعادلة على معادلة ، وبقى فى كل ذلك على أصل ثابت وميزان واضح ، أما كان ذلك يضمن له أن ينتظم حسابه ولا يضل طريقه ؟ ! ربما قال قائل لقد أبعدت يا هذا فى المثل ، فإن «الواحد» بدهية لا تحتاج إلى علم ، والذى يجهلها مجنون لا يصلح لعلم ؛ وذلك قولٌ حقٌ لا أنكره ، فكيف يُنكر على الداعى إلى الله أنه هو الداعى إلى الأساس الصحيح فى فهم الحياة ، وكيف يُنتظر من «مجنون» جُنّ عن هذا الأساس أن يصلح للحياة على أرض الله ؟!!

إن الهدى والكرامة فى مثل قول الله « ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم » لا يقابلهما إلا الضلال والمهانة فى قول الله « فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم »

ما أكثر ما تبدو الحسبة صحيحةً فى أرقامها ثم تسفر نتيجتها عن خطأ بيّن يعود له المحاسب إلى أوليات حسبته يصححها . . . وما أشبه ذلك بقوم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ثم تكون النار مثوًى لهم ، ثم يقال لأحدهم من بعد « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ! !

إن التأسيس على هذه الربانية هو خطة الأنبياء ، وهو أساس لا يُحتال له بالجدل ولا بالمنطق لأنه البدهية الأولى للحياة ؛ وإنما يعالَج بمخاطبة النفوس بما خاطبها به الله ، وبتغذية مشاعرها بالزاد المبارك من آياته ، وبترويض قواها على الإذعان لأمره « وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب »

ويجب أن تظل هذه الربانية مصدر مشاعر الإنسان كلها وميزانها : يحب بها ويكره بها ويغضب بها ويثور بها ، وإنك لتقرأ الآيات المكية كلها فتجد القرآن الذى

استأصل الظلم لم يُثِر عصبية المظلومين ، والذى حارب الذل لم يثر نعرة المستعبَدين ، والذى جاهد الفقر لم يُثِر حمية الفقراء ، ولكنه أنشأ جيلا ذا سمت واحد فى كل مشاعره ؛ يستوى فيه الفقير والغنى والسيد والمسود ، ثم نهض هذا الجيل نهضة لله أقرّت كل شىء فى موضعه ، وأعطت كل ذى حق حقه ، وظلّت مشاعرها ربانية صافية لا يخالطها نعرة ولا حمية ولا عصبية ، وهذا هو الذى كفل لها النظافة فى كل مراحلها ، والقوة على كل أعدائها ، والثبات بعد انتصارها . .

وأعنى « بالروح الباعث » أن تظل الحركة الإسلامية — فى كل مكان — حركة بعث لا تتورط فى شىء يتخلف بها عن ذلك ، ولا تستهلك قوة من قواها فى جزئية تقعد بها عن الإحاطة بالكل الذى هى فى سبيل بنائه من جديد ، وأسلوب البعث غير أسلوب الوعظ والتدريس ؛ إنه أسلوب يمهد إلى مكامن الحياة فى الناس يناوشها ويطلقها ، وإلى مشاكلهم العملية يبيّن أسباب الفساد فيها وطريق الخلاص منها ، وينفر من كل جدل لا طائل وراءه ، ومن الدخول فى خلافات حول التفاصيل لا تنتهى ، وأن يحتفظ فى كل ذلك بصراط دقيق : طبيعته فيه البناء قبل الهدم ، وجمع الشمل قبل إثارة الخصومة ، والإنهاض إلى العمل المنتج لا إلى التلذذ بالنقد !

وأحب أن أستطرد هنا فأضرب مثلا من واقع الحركة الإسلامية فى عصرنا الحديث . . . . لقد قام السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله فبعث شعوراً عاما فى العالم الإسلامى ، غلب عليه التحمس السياسى وإن بقى محتفظا بالصبغة الإسلامية ، ثم جاء الإمام محمد عبده رحمه الله فاتجه إلى نهضة علمية أحدثت أثرها العظيم ولا شك ، ولكنه انشغل فيها بالردود على الشبهات والأباطيل ، وكان ميراثها الكتابات الفنية بين أيدينا ، وطلائع اليقظة العلمية فى الأزهر الشريف ، ثم حمل السيد رشيد رضا لواء المعركة من بعده ، وأخذ رحمه الله يهدم هنا وهناك ، وكان له فى ذلك جهاد أى جهاد ، ولكنه انشغل بدوره فى الهدم قبل البناء . . . . إلى أن جاء الإمام الشهيد « حسن البنا » رحمه الله وكان وثيق الصلة بالسيد رشيد ، ولكنه اتجه اتجاهاً جديداً فى العمل والتنظيم ، وآتاه الله روحا قوية جاب بها المدن والقرى ، وصنع بها التلاميذ والمريدين ، وأنشأ بها الحركة الحية التى لا تزداد إلا قوة ، والتى أصبحت تتعلق بها آمال المسلمين ،

ونجح رضوان الله عليه فى تجنب الخلافات رغم أنه كان العالم المتمكن الذى عرف الناس علمه فى كتاباته القليلة فى « الشهاب » ؛ وكان رائعاً فى إبقاء الجذوة مشتعلة بعيداً عن كل جدل وخلاف ، وفى الوصول إلى ما أراد من تصحيح العقيدة وجمع الشمل دون جلبة وضجيج . . .

هكذا يجب أن تكون الحركة التى تريد أن تُنهض المسلمين ، حركة ربانية صافية الوجه والأسلوب ، وباعثة تبعث الحياة وتنير الطريق . . .

* * *

والحقيقه الثالثة التى رأيتها فى رسالة فتاة الأرجنتين وفى دعوة حاكم السند ، هى أن الكتابة وحدها لا تكفى ، والخطابة العامة لا تُغنى ، وأنه لابد من الاتصال الفردى بالناس ؛ فإن للأفراد أمزجةً ومشارب تحتاج إلى صلة من قريب ، ولعلك لو تقصّيت جنود الحركة الإسلامية فى كل بلد لوجدت لكل منهم قصة فى اتصاله بالحركة والعمل فيها ، ولوجدت البطل الحقيقى فى كل قصة داعية مؤمناً تصيّده فى حفل عام ، أو فى مكان عمله ، أو طرق بابه ، ولزمه حتى أخذ مكانه فى العاملين وهنا تبدو مسئولية جنود الحركة الإسلامية فى كل مكان ؛ فإن الدعوة العامة ليست هى كل شىء فى تعريف الناس بالإسلام وجمعهم عليه ، بل إن دور الدعوة العامة هو الدور الهيّن ، وعلى كل منهم أن يعرف كيف يتصل بآحاد الناس فى المسجد ، أو فى الشارع ، أو فى المدرسة ، أو فى المكتب ، أو فى المصنع ، أو فى المزرعة ؛ لا يحجزه عن ذلك حياء ولا تردد ، وأن يذكر دائماً أن خير هدية يهديها لنفسه هى أن يربط قلباً جديداً بهذا الدين و « لأن يهدى الله بك رجلاً واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » .



الجهاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٣)

١ — انتهينا فى مقالنا السابق إلى بيان إجمالى للباعث الأول من بواعث الجهاد الذى فرضه الله تعالى على المؤمنين ، وهو اعتداء المشركين وغيرهم ، وبقى الباعثان الآخران ، وهما فتح السبيل أمام الدعوة الإسلامية ليخلو وجه الشعوب لسماع كلمة الحق ، ولا تقف محاجزات الأكاسرة والقياصرة دون هذه الدعوة — ورفعُ المظالم الواقعة على الشعوب من طغيان هؤلاء العتاة الظالمين .

وإن هذين الباعثين ينتهيان إلى غاية واحدة ، وهى كف أيدى الطغاة الظالمين ، ليكون الناس أحرارا فى اعتناق ما يرون من دين ، وليكون الدين كله لله ، يعتنق الدين من يعتنقه بباعث من وجدانه ، ودافع من عقله ؛ وإن ذلك لا يكون إلا بمنع المظالم كلها ، وتمكين الناس جميعا من أن يكونوا أحرارا ، كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وإن ذلك لا يتحقق إلا بمحاربة القوى التى يعتمد عليها أولئك الطغاة ، ومنازلتهم فى سبيل الحق والحرية والعدل .

٢ — وفى الحق أن حماية الدعوة الإسلامية فى أرض الجزيرة العربية كانت تتقاضى المجاهدين فى حمايتها ألا يغمضوا أعينهم عمن يتربص بها الدوائر ، وهم الروم والفرس الذين يكتنفون بملكهم تلك الأرض المقدسة ؛ فإنهم بمجرد أن أحسوا بأن دولة الحق قد قامت فى الأرض ، شعروا بأن الأرض تميد من تحتهم ، وأن عروشهم تزلزلها صيحات الحق التى تنبعث من بلاد العرب مدوية مجلجلة ، وأن الأوهام التى سيطروا بها على شعوبهم تنجاب غياهبها أمام النور المشرق الذى أشعت أضواؤه من بلاد الحجاز .

ولذلك كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على الدعوة ، وقتلها فى مهدها ، وإطفاء نور الله الذى أشرق قبل أن تستيقظ شعوبهم لسماعه ، وتهوى أفئدتهم إلى إلى اتباعه ، وتلك هى الحاقة التى تقضى عليهم وعلى أوهامهم ؛ ولولا أنهم كانوا فى خلاف فى أمورهم لعاجلوا هم الضربة قبل أن يهاجموا ، وما كان للنبى وهو الأريب أن يغفل عن هذه الحقيقة ؛ ولذا اتجه إليهم قبل أن يتجهوا إليه ، وقد بدرت منهم بوادر الشر ، وهموا به ، ولكن حيل بينهم بذلك الخلاف ، فكان لابد أن يعاجلهم النبى قبل أن يعاجلوه ، وما خرج فعله عليه السلام عن أن يكون دفاعا ؛ لأن الدفاع قد يلبس لبوس الهجوم ، وما غُزِىَ قوم فى عقر دارهم إلا ذلّوا . ولذلك وجه إلى الروم جيوشه قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، وأوصى بأن ينفذ من بعده جيش أسامة الذى وجهه إلى الشام كيفما كانت الأحوال .

٣ — وإننا نرى الآن الأمم يستعدى بعضها على بعض باسم الحق والعدل ورفع الظلم ، وهى فى حقيقة أمرها تريد التسلط على موارد البلاد التى يعادونها ، واستغلالها وفرض الذلة عليها ، وتستر اعتداءها باسم الحق ، والعمل على ترقية الشعوب ، وما تريد إلا إرهاقها ، واستنزاف مواردها ، والضرب عليها ، وتعويق تقدمها ، ومناهضة الحريات فيها ، وقد يبدو لبعض الذين يسيئون الظن بالحروب أن عمل المؤمنين بعد النبى صلى الله عليه وسلم كان من هذا القبيل ، تستروا باسم دعوة الحق ليغلبوا ، وباسم الحق ليسيطروا ، ويضعوا أيديهم على خيرات البلاد المفتوحة .

وإن من يظن ذلك الظن قد يُعذَر إذا أراد أن يأخذ من صورة الحاضر الحكم على الماضى ؛ ولكنه يظلم الحقيقة كل الظلم إن عمّمَ ذلك الحكم على المؤمنين الأولين ، الصحابة المكرمين رضى الله عنهم ، وهم الذين يصورون حرب الإسلام فى بواعثها وغاياتها ، ونظمها وأحكامها ، وقيودها وأحوالها ؛ لأنهم الذين تلقوا رسالة الرسول من شخصه الكريم ، فهم الذين عاينوا وشاهدوا ؛ وهم الجديرون بأن ينقلوا الصورة الحقيقية لما يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم .

وإنه لأجل أن يتبين المقصد الحقيقى من حروب النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده ، يجب أن نذكر حال الدولتين اللتين كانتا تكتنفان الدولة الإسلامية ، وهما الفرس والروم .

٤ — أما الرومان فقد اعتنق ملوكها النصرانية بعد الوثنية الجامحة فى أول القرن الرابع بعد الميلاد ، أو على وجه التحقيق حول سنة ٣٢٥ بعد أن أشربوا المسيحية بعض الوثنية ، وبعد أن أرهقوا النصارى ، وساموهم سوء العذاب ، وبعد أن كانوا يحفرون لهم الحفر ويوقدونها ثم يلقوهم فيها أحياء تلتهمهم النيران ، وبعد أن اتخذ نيرون من النصارى مشاعل آدمية ، تسير محترقة فى ركابه . وكان نصيب مصر من ذلك أعظم نصيب ؛ فإن المذابح كانت تنزل بهم مذبحة بعد مذبحة ، وما زال تاريخ مصر شاهدا بتلك المذبحة الإنسانية التى أنزلها بمصر « دقلديانوس » امبراطور الرومان ، والتى جعل مبدأ التاريخ القبطى هو حدوثها ؛ فكان التاريخ القبطى بهذا سجلا لمظالم الرومان ، وقوة إيمان المصريين بالنصرانية الأولى .

٥ — ولما دخل الرومان فى المسيحية عند انعقاد مجمع نيقية الذى قرر ألوهية المسيح ، واعتباره ابناً لله سبحانه لم تنقطع المظالم ، بل ابتدأت تلبس لبوساً آخر ، ويتجه الاضطهاد الدينى فى طريق آخر . لقد أخذوا يضطهدون اليهود ، ليدخلوا فى الديانة التى اختارها حكام الرومان ، وأنزلوا بهم ما أنزلوا بالنصارى من قبل ، بل أمعنوا فى تفتيش القلوب ، والكشف عن خبايا النفوس التى لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فإن من كان يدخل فى النصرانية التى ارتضوها — من اليهود — لا يصدقونه ، بل يحاولون أن يتعرفوا قلبه ، ولا يتحرجون فى سبيل ذلك عن أى إثم يرتكبونه ؛ بل إنهم ليذهب بهم فرط اضطهادهم لهؤلاء المنكوبين بهم أن يستبيحوا بعض المحرمات ليختبروا اعتقادهم . وذلك أنه من النصوص عليه تحريم الخنزير ، نصت على ذلك التوراة ، وهى واجبة الاتباع عند اليهود وعند النصارى على سواء ، وكان اليهود فى ذلك الإبان يستمسكون بذلك أشد الاستمساك ؛ فكانوا يحرمون على أنفسهم الخنزير . ولكن الرومان لفرط عنادهم ، ولجاجتهم فى الأذى استباحوا لحم الخنزير ليختبروا اليهود بذلك ؛ فإن وجدوهم يأكلون الخنزير كما استباحوا هم — كان ذلك دليلا على دخولهم فى النصرانية ، وإن امتنعوا عن أكله كان ذلك دليلا على أنهم ما زالوا على دينهم القديم .

إن اللجاجة فى الأذى بلغت بذلك أقصى الغاية ، يتخذون من الاستمساك

بأحكام النصرانية الحق دليلا على أنهم لم يدخلوا فيها ، واستمروا على ذلك الاضطهاد مع أن أم قسطنطين قد نهت عن إباحة الخنزير ، ما دام محرماً فى التوراة ، ولم يجئ فى الإنجيل ما ينسخ ذلك التحريم ، كما هى القواعد المقررة فى شريعة النصارى .

٦ — ولما كان الاختلاف بين النصارى حول شخصية المسيح عليه السلام من حيث اجتماع ما سموه الناسوت باللاهوت ، أى العنصر الإنسانى بالعنصر الإلهى فى زعمهم .

ولما كان ذلك الاختلاف بين الكنيسة المصرية والكنيسة الرومانية أنزل الرومان الأذى بمن خالفوهم واعتنقوا مذهب المصريين ، وسموا رأى الرومان المذهب الملكانى ، وسموا رأى المصريين المذهب اليعقوبى نسبة ليعقوب البراذعى أشد الدعاة إليه .

ولقد تعرض بهذا بعض النصارى لمحن شديدة قاسية ، بسبب تلك المنازعات المستمرة ، وبسبب أنهم يريدون أن يكون واليهم على مذهبهم ، ويريد الرومان أن يكون الوالى على المذهب الملكى ، فكانت المحن ، وتولدت الإحن ، وكانت المظالم الشديدة ، التى هتكت فيها الحرمات ، وأبيحت الدماء والأموال ، وذهب الأمن ، وانقطعت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح كل فريق يناوئ الآخر ، ويناصبه العداوة ، وفى يد الرومان قوة الجند ، وقوة الحكم ، وأسباب الإكراه والإرغام ، فكانت الفتنة الدينية ، وكان الإكراه المذهبى ، وكان معه الاضطهاد والأذى ، فكان لا بد من منقذ ، ولا يكون من الرومان الغالبين ، الذين هم مصدر الأذى وقوته ، كما لا يمكن أن يكون من الشعوب المغلوبة المرهقة فى حريتها الدينية ، لأنها لا تستطيع لنفسها فكاكا ، ولا تستطيع أن تقاوم مضطهديها بقوة السلاح ؛ لأنهم جردوا من كل قوة ، فلم يكن لهم إلا أن يستسلموا لرب العالمين ، والله مجيب دعاء من يتوكل عليه حق توكله ، فكانت الإجابة بقوة مؤيدة من السماء .

٧ — ولم يكن الأمر مقصوراً على ذلك الاضطهاد الدينى ، بل كان ثمة معه اضطهاد آخر عنصرى ، ذلك أن الرومان ومن قبلهم اليونان كانوا يعتبرون كل من خالفهم ، ولم يولد على أرضهم ، من البرابرة الذين لا يتمتعون بالحرية التى يتمتع بها الرومان ،

والذين يعتبرونهم عبيداً لهم مسخرين ؛ فكانت لذلك المظالم الشديدة المرهقة التي تنزل بالضعفاء ، يسلبون أموالهم وجهودهم وحرياتهم بالاستغلال أحياناً ، وبالاسترقاق أحياناً ، وبالتحكم المذل في كل الأحيان .

وقد كان العرب عرضة لهذه المعاملة المذلة بعد أن بدت فيها تلك القوة الروحية الغالبة ؛ إذ كانت قبلها في حماية عن أنظار الرومان بجفافها وصحرائها ، ورمالها وعدم وجود موارد لها ؛ ولأنها كانت حصناً محاجزاً بين الدولتين المتناحرتين الفرس والروم ، أما وقد صارت قوة مغالبة طالبة فإنها لا تنتظر من الرومان إلا عذاب الهون ، كما كان الشأن مع النصرانية من قبل ، واليهودية من قبلها ، وقد بدت البوادر فقتل والى الشام من قبل الرومان النفر الذين أسلموا فيها

٨ — فهل يسوغ لمحمد أن ينتظر حتى يأخذوا أتباعه ، بما أخذوا به النصارى واليهود ، إنه الدفاع عن الحوزة ، ومنع الفتنة في الدين يوجبان عليه أن ينازلهم ؛ وقد نابذوه المداوة ، وبادروا بها ؛ فأظهروا بعض ما ينوون ، وفيما ينوون الشر المستطير ، والخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ؛ لذلك عاجلهم وسبقهم لتكون الضربة الأولى المدافعة له ، فأرسل الجيوش في مؤتة مختبراً قوتهم ؛ ثم جهز الجيش لمنازلتهم وجعل على رأسه أسامة ، وأوصى بإنفاذه كيفما كانت الحال ؛ فكان الأمر على ما دوّن التاريخ ، وحمى الإسلام في هذه الناحية من الأرض ، ونجى به المعذبين الذين سامهم الرومان الخسف والنكال .

٩ — ولئن تركنا الرومان ويممنا جهة المشرق لنرى حال الدولة الأخرى التي تصاقب بلاد العرب ، وتستولى على بعض أقاليمها لنجدن أن الشر قد أبدى ناجذيه فيها ، فإنه لما وجهت الدعوة إلى كسرى ليدخل في الإسلام أو ليمكن من في حكمه من أهل فارس في الدخول بادر بالأذى وأرسل إلى الحجاز من يأتيه برأس الرسول الأمين . ولقد كان هذا سبباً كافياً لأن يعاجله النبي صلى الله عليه وسلم بالضربة حماية لدعوته ، ودفاعاً عن حوزته ، ولكن الأمر في فارس كان أشد من ذلك ، ودواعى قتالهم لم تكن كذلك .

لقد كانت فارس تقدس النيران ؛ وتسير على مبادئ دينية مضطربة ، والغالب

عليها مذهب زرادشت المجوسى الذى كان يؤمن بأن للعالم إلهين : أحدهما للخير والآخر للشر ؛ وكان يدعو إلى القوة والسيطرة . ومبدؤها الخلق أنه لا مكان للضعيف فى هذه الأرض .

١٠ — ولقد كان الشعب فى حال رق مستمر ، وكان آحاده العبيد المسخرون للحاكم ؛ فلا حول لهم ولا قوة ولا شأن لهم فى حكم ، وفوق ذلك فإن الانحلال الخلقى والاجتماعى قد عرا النفس الفارسية قبيل الإسلام ، وذلك لأن تحكم كسرى وتحكم الأشراف الذين يحفون به سهل على الشعب اعتناق مبادئ مخربة ؛ فقد جاء مزدك ، ودعا إلى إباحة الأموال والنساء ، وأجابته العامة لانحلال كل القيم الخلقية والاجتماعية فى نفوسهم بالتحكم المستمر من الملوك والأشراف ؛ وانتشر ذلك المذهب وذاع وملأ البقاع ، حتى ارتفع من العامة إلى الملك ، فاعتنقه قباذ كسرى الفرس فى إبانه ؛ وحكم أمداً طويلا ، وكانت مدة حكمه نحواً من ثلاث وأربعين سنة ، وفيها فسدت الأخلاق وجهلت الأنساب ، وصارت أمور الناس إلى فوضى اجتماعية ، حتى جاء كسرى أنو شروان فقتله واستولى على الملك من بعده ، وفى عهد أنو شروان بزغ من الصحراء نور الوجود ، إذ ولد محمد صلى الله عليه وسلم .

١١ — هذه إشارة إلى حال الفرس : تحكم من الحكام فى الرعايا واستبداد ، وظلم وعبث ؛ واستغلال للقوى ، ثم اعتداء مستمر على العرب ، ثم اتجاه إلى قتل النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فهل كان لمحمد أن يستمر ساكتاً حتى يقتلوا الإسلام فى مهده ، ويجتثوه من أصله ؟ ما كان ذلك شأن الدعوة المحمدية ، إنها تعاجل الاعتداء قبل استحكامه ، وتأخذه قبل جمع زمامه ؛ ولذلك ما ترك محمد الأمر ، بل اعتزم القتال ، ولكنه عاجل الروم قبل الفرس ، وأشار إلى أصحابه إلى أن الفرس سيكونون حماة الإسلام وحملة علمه ؛ فقد ورد فى الصحاح التبشير بأن العلم لو كان فى الثريا لناله ناس من أهل فارس ، ولقد قال جمهور من المفسرين المتبعين فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » : إن أولئك القوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أهل فارس . وما كان ليظهر أولئك المحبون إلا بعد أن تحال الحجز التى تمنع وصول الدعوة إليهم ، والملوك الذين يفتنونهم عن دينهم ؛ وذلك بإزالة طغيان الملوك .

١٢ — وننتهى من هذا إلى أن الحروب الإسلامية الأولى كانت دفاعاً عن الدين من اعتداء المعتدين ، ولمنع الظلم المستمر على الرعايا ، وليتمكن الرعايا من إجابة الدعوة المحمدية من غير فتنة ولا إكراه . وإنا نختم هذا المقال بكتب النبى صلى الله عليه وسلم التى أرسلها إلى بعض هؤلاء الملوك ؛ ومنها يتبين أنه كان يقصد أولاً وبالذات أن يتمكن من الدعوة إلى ربه بين الرعايا .

١٣ — وهذا كتابه الكريم إلى هرقل كما ورد فى الصحاح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن أبيت فإن إثم الأكارين عليك » .

ونرى من هذا أنه يطلب منه أن يسلم ، ثم إن أبى فعليه إثم الزراع والصناع وغيرهم من دهماء الأمة ، ومعنى ذلك بالتالى أنه لو أخلى بينه وبينهم لخلا من إثمهم ، ولكنه لم يفعل .

وبمثل هذه الصيغة كتب إلى كسرى والمقوقس .

ويلاحظ أنه كان لا يخاطبهم بعنوان أنهم ملوك الروم أو الفرس ، بل كان يقول عظيم أمر الفرس أو القبط ، ولا يعبر بملك ، وفى هذا مغزى يدركه المستبصر العميق النظر .

وهبنا الله السداد ، ووفقنا إلى الرشاد .

إضاعة العمر

يا واثقاً من عمـــره بشبيبةٍ ... علقت يداك بأضعف الأسباب

ضيّعت ما يجدى عليك بقاؤه ... وحفظت ما هو مؤذنٌ بذهاب

المـال يُضبط فى يديك حسابه ... والعمر تنفقه بغير حســاب

« الحافظ الذهبي »

الانحراف عن العقيدة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(٤)

وربما كان من أخطر مظاهر الانحراف عن الإسلام وعقائده ونظمه ، ما نراه ماثلا فى بعض التشريعات والقوانين التى نحكم بها ، معشر المسلمين فى مصر وغير مصر من البلاد الإسلامية ، هذه الأيام .

ذلك ، بأن أهم ما يتميز به الإسلام عن غيره من الأديان التى سبقته إلى الوجود فى هذا العالم هو أنه جاء بعقيدة وشريعة ، وأنه دين ودولة ، فهو يعنى بأمور الآخرة كما يعنى بأمور الدنيا .

نعم ! لقد ظهر الإسلام والعرب ، بل العالم كله ، فى أشد الحاجة إليه ، فآتاهم العقيدة الحقة بعد أن كانوا منها فى أمر مريج ، والشريعة الصحيحة بعد طول ما عصفت بهم النزعات والأهواء ، والنظم الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تسهم بأوفر نصيب فى بعث العالم ونهضته ، وكان من هذه الشريعة والنظم ما نسميه « الفقه الإسلامى » .

والإسلام كلٌّ لا يتجزأ ، ونظام متكامل لا يصح أن نؤمن ببعضه ونكفر ببعضه الآخر ، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً بعيدا . ومقتضى الإيمان بالله وكتابه الأزلى الخالد ، والإيمان برسوله وقد أرسل رحمة للعالمين ، أن نتزل على كل ما نجد من أحكام وشرائع فى القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة ، سواء فى ذلك أمور الدنيا وأمور الآخرة .

وقد اشتمل هذان المصدران المقدسان على ما نحن بحاجة إليه من التشريعات

والنظم الصالحة ، وما علينا إلا أن نحسن فهمهما واستثمارهما والإفادة منهما ، وذلك على نحو ما فعل الصحابة والتابعون والفقهاء المجتهدون رضوان الله عليهم جميعا .

ومع غناء الكتاب والسنة وأعمال الفقهاء السابقين فى هذه الناحية : ناحية التشريعات والقوانين بمختلف أنواعها ، ومع خصوبة الفقه الإسلامى بفضل أصوله التى يقوم عليها وقابليته لإمدادنا بكل ما يحتاجه العصر من قوانين ، ما الذى نحن عليه اليوم ؟ .

نرى بكل أسف أننا انصرفنا فى غير قليل من القوانين والتشريعات عن هذا الفقه ، وولّينا وجوهنا شطر الغرب نأخذ عنه ، كأننا أمة ليس لها ماض ولا تاريخ مجيد ، ولا تشريعات صالحة لكل زمان ومكان ، ومع هذا نزعم أننا أمة مسلمة مؤمنة بالله وكتابه الذى أنزل على رسوله !

هذا الكتاب الذى يقول فى بعض آياته الكريمة المحكمة : « فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله وإلى الرسول » ؛ ويقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ويقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

وهذا الرسول الذى يقول ، صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ؛ فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ؛ وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقَوْا وزرعوا ؛ وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً . فذلك مَثَل من فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعلِم وعَلَّم ، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هُدى الله الذى أرسلت به » .

وإن تعجب فعجبٌ استمساك القوم بقوانينهم الوضعية ، وهى من عمل العقل البشري الذى هو عُرْضة دائما للخطأ ، وآية ذلك فى هذه القوانين ذاتها ما ينالها

دائما من تغيير وتبديل وإلغاء ! وعدم تمسكنا نحن المسلمين بقوانيننا وشرائعنا ، وهى إلهية فى أسسها وأصولها وكثير من تفاصيلها ؛ وانصرافنا بهذا عن كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسوله الذى لا ينطق عن الهوى .

وقد يكون من الواجب البحث عن السبب الأول لهذا البلاء ، بل لهذا الحمق الذى نرى له مظاهر مختلفة فى ناحية القانون وغير القانون ، وإن كنا نرى أن يكون حديثنا فى هذه الكلمة عن القانون وحده ، القانون الذى هو أساس كل مجتمع ؛ إذ يحدد العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الحاكمين والمحكومين ، وهو كذلك عامل له خطره فى الأخلاق الفردية والاجتماعية .

إن هؤلاء الزائغين عن كتاب الله وسنة رسوله ، والمنصرفين عن شريعة الإسلام إلى شرائع الغرب وقوانينه ، يقولون بأن القانون الإسلامى « جامد لا يقبل التطور مع الزمن » ؛ وأن ما كان صالحا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، فى ذلك العالم البسيط فى حاجاته ومشاكله ، لا يمكن أن يصلح لهذا العصر المتغير الكثير الحاجات والمشاكل .

وقد تعاموا أو تغافلوا عن أن هذا الفقه الإسلامى قابل حقا للتطور حسب المصالح العامة للمجتمع فى كل عصر ، وذلك بفضل أصوله الخصبة المرنة : نعنى الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ونحوها مما يعرفه دارسو هذا الفقه ، حتى لقد اضطر كثير من المستشرقين والغربيين بعامة إلى الإقرار بذلك كله .

بل إنى ، وأنا فرد واحد متواضع الجهد ومحدود الفكر ، قد استطعت بحمد الله بحث ما يجرى فى « بورصة » القطن فى مصر ، والحكم على عملياته التى تجرى فى هذه السوق على ضوء هذا الفقه الإسلامى ، وذلك فى كتاب ظهر لنا هذا العام بعنوان : « فقه الكتاب والسنة ؛ البيوع والمعاملات المالية المعاصرة » ، فكيف يكون الحال إذا تضافرت جهود العلماء والفقهاء على بحث كل المعاملات المالية والتجارية التى تجرى فى سائر الأسواق والبنوك ؟ !

ويقولون أيضا : إن هذا الفقه مورد عسر الورود إن لم يكن متعذره ، بسبب ما يعوزه من حسن التبويب والعرض بما يجمله على حبل الذراع لمن يريد . وهذا فضلا عما أصاب الفقه من الجمود والوقوف عند ماقال السابقون ، وذلك بسبب إقفال باب الاجتهاد وشيوع التقليد الذى ران على العقول والقلوب .

ومع ما فى هذا القول من الحق ، فإنه فى رأينا تعلة يتعلل بها أولئك المنصرفون عن هدى الله ورسوله ، الكافرون بقوميتهم وما تقوم عليه من أسس يعتبر الدين أولها . وإلا ، أين هم من الأحكام التشريعية التى نجدها واضحة ثابتة فى القرآن نفسه ؟

إن القرآن يحرم الربا قليله وكثيره ، وفى كل صوره وضروبه ، ومع هذا فنحن نقيم اقتصادنا القومى ومعاملاتنا المالية والتجارية عليه جريا مع الغرب ! والقرآن نفسه كذلك يحرم الخمر والميسر ، ومع هذا نسن القوانين التجارة فى الخمر وحمايتها ، أو نمارس غير قليل من الميسر ، فى صور مختلفة ! والحال كذلك فى كثير من الأحكام الجنائية وغيرها ، ويكفى التمثيل الآن بعقوبة الزنا والسرقة !

ولكن من الحق كما قلنا أن الفقه يحتاج إلى عمل كثير جاد من المؤمنين به ، بل من المؤمنين بمصدريه العظيمين المقدسين : الكتاب والسنة ، وهذا حتى يكون لنا أن نطالب بأن يكون هذا الفقه الإسلامى هو المصدر الرسمى الأول للقوانين التى تحكم بها الأمة الإسلامية فى مصر وغير مصر .

إن على الفقيه ، من رجال الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية ، ألا يعيش فى الماضى وحده ، فلا يعكف إلا على ما تركه لنا أسلافنا من تراث ؛ بل عليه أن يعيش فى زمنه ، وأن يحيط بالمشاكل الفقهية والقانونية لعصره وبيئته ، ثم يجتهد فى إيجاد حلول لها تتحقق بها المصلحة العامة الحقيقية . ويكفى حينئذ ألا تتعارض هذه الحلول مع شىء من القرآن والسنة ، وإن تعارضت مع قليل أو كثير من آراء الفقهاء الماضين .

إنه من الواجب أن يكون لنا فقهاء من هـذا الطراز المجيد الذى كان عليه

الأسلاف الذين عاشوا مع بيئاتهم وحَلُّوا لها مشاكلها ، وحينئذ نرى حكم الشريعة الإسلامية واضحا قويا فى كل مشاكل هذا الزمن ، وفى جميع ميادين الحياة المتجددة دائما ، ومن أولى بإعداد هذا الطراز من الفقهاء من الأزهر متماونا مع كليات الحقوق فى الجامعات المصرية !

هذا ، ونمتقد كل الاعتقاد أنه قد آن الأوان ليكون لنا « مجمع الفقه الإسلامى » بجانب « مجمع اللغة العربية » ؛ فإن دراسة الفقه على النحو الذى طالما دعونا إليه ، وتحقيق الغاية من هذه الدراسة ، أمر لا يمكن أن يتحقق إلا برجال هذا « المجمع » الذى نلح فى الدعوة إليه جاهدين .

وإنه من المخجل لنا ، نحن المسلمين والعرب ، أن نجد الغربيين يعنون بهذا الفقه الخالد ؛ فيقيمون له حلقات دورية لدراسته من المهتمين به فى الغرب والشرق ، ثم توفد الحكومات والجامعات العربية الإسلامية ممثلين لها فى هذه الحلقات أو « الأسابيع » أو المؤتمرات ، ولا نفكر نحن بأن نكون البادئين المنشئين لهذه الحلقات وندعو لها المهتمين من الأجانب بهذا الفقه الإسلامى !

إن هذا « المجمع » ، حين يتكون من علماء بالشريعة الإسلامية ، ومن علماء بالقانون الوضعى يتميزون بالعاطفة الدينية الإسلامية الصادقة ، يستطيع أن يقوم بكل ما نرجوه ويرجوه غيرنا من محبى هذا الفقه والراغبين فى جعله أساس تشريعاتنا الحديثة .

كما أنه يستطيع ، بلا ريب ، أن يعمل على تطور هذا الفقه وجعله صالحا للتطبيق فى هذا العصر ؛ على أن يكون هذا التطور فى دائرة الكتاب والسنة ، ووفقا لمبادئ الفقه نفسه وأصوله وبخاصة الإجماع . هذا الأصل الخصيب الذى أدى ثمراته الطيبة فى الأيام المجيدة الأولى ، وهو حرى بأن يؤتى ثمراته الطيبة أيضا فى هذا العصر وفى المستقبل من الزمان دائما ؟

فى ظلال السنة

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

مدح الرجل فى وجهه قصم لظهره

روى مسلم فى صحيحه عن أبى موسى قال :

سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يثنى على رجل ويُطريه فى المِدْحة فقال :

« لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل[1] »

* * *

ظاهر الحديث يدل على تحريم مدح الرجل فى وجهه ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم شبَّه ذلك بالقطع أو الهلاك .

وذلك ممنوع . لكن يعارضه قوله عليه السلام فى عبد الله بن عمر « نعم الرجل لو كان يقوم الليل » وعبد الله بن عمر رضى الله عنه حاضر يسمع ، وذلك تزكية له وثناء عليه . والجمع بينهما من وجوه :

الأول : أن ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم لابن عمر لم يكن منه ابتداء ولا جوابا لسؤال سائل ؛ وإنما كان ذلك تفسيراً لرؤيا رآها ابن عمر فاقتضى تفسيرها ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن عبد الله بن عمر كان يرى الناس يأتون النبى صلى الله عليه وسلم برؤى فيفسرها لهم ، فيتمنى فى نفسه أن لو رأى رؤيا فيُسئل عنها النبى صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل الناس . فرأى رؤيا فسئل عنها فاقتضت رؤياه أنه من الصالحين ، لكن نقص منه كونه لا يقوم الليل . وقد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : « الرؤيا من النبوة وما كان من النبوة فهو وحى » والوحى لا يجوز كتمه .

---

(١) قول الراوى للحديث : « أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل » إنما هو شك منه فى أيهما قاله عليه السلام .

الثانى : أن تعارض الحديثين يبين معناها ، ويفصح بالمراد فى كليهما حديثان آخران ، وهما قوله عليه السلام : «لا تزكوا على الله أحدا ، ولـكن قولوا إخاله كذا ، أو أظنه كذا » وقوله عليه السلام : « إذا رأيتم الرجل يواظب المسجد فاشهدوا له بالإيمان » .

فيحصل من عموم هذه الأحاديث أن التزكية بالقطع ممنوعة مطلقا لأن القطع بها حكم على الغيب ؛ والحكم على الغيب بالنسبة إلى البشر مستحيل .

روى مسلم فى صحيحه عن إبراهيم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان رضى الله عنه ، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه — وكان رجلا ضخما — فجعل يحثو فى وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ماشأنك ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نحثى فى وجوه المداحين التراب .

* * *

وأما تزكية الشخص فلا يخلو أن تـكون من الإنسان نفسه لنفسه أو من غيره .
فإن كانت من الإنسان نفسه لنفسه بأن يذكر محاسنه فهو على ضربين : مذموم ومحمود .

فالمذموم أن يذكره بالافتخار ، وإظهار الارتفاع والتميز على الأقران وشبه ذلك ؛ فهذا لا يجوز لقوله تعالى فى سورة (النجم) « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

قال الألوسى فى تفسيره :

« نزلت هذه الآية على ماقيل فى قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالا حسنة ، ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا . وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء» .

وأما المحمود من تزكية الشخص لنفسه فهو أن يكون فيه مصلحة دينية فى ذلك بأن يكون آمراً بالمعروف ، أو ناهياً عن المنكر ، أو ناصحا ، أو مستشيراً لمصلحة ، أو معلما ، أو مؤدبا ، أو واعظا ، أو مذكرًا ، أو مصلحا بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ونحو ذلك ؛ فيذكر محاسنه ناويا بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد مايذكره ، أو أن هذا الـكلام الذى أقوله لا تجدونه عند غيرى فاحتفظوا به ، أو نحو ذلك .

وإن كانت التزكية من غيره فلا يخلو أن يكون فى وجه الممدوح ، أو بغير حضوره .

فأما الذى فى غير حضوره فلا منع منه إلا أن يجازف المادح فيدخل فى الكذب ، فيحرم عليه بسبب الكذب لا لكونه مدحا . ويستحب هذا المدح الذى لا كذب فيه إذا ترتبت عليه مصلحة ، ولم يجرّ إلى مفسدة ؛ بأن يبلغ الممدوح فيفتتن به أو غير ذلك .

وأما المدح فى وجه الممدوح فلا يخلو أن يكون تزكية له عند الحاكم لكى تقبل شهادته أم لا ؛ فإن كان كذلك فهى جائزة امتثالا لأمر الشارع عليه السلام فى ذلك ، وإن كانت لغير ذلك فهى الممنوعة فى الحديث . ولأجل هذا المعنى قال عليه السلام : « من مات على خير عمله فارْجُوا له خيرا ، ومن مات على شر عمله فخافوا عليه ولا تيأسوا »

الثالث : أن معنى النهى عن مدح الرجل فى وجهه هو خوف الاغترار والإعجاب وهو ممنوع شرعا .

يقول أبو بكر الرازى فى كتابه (الطب الروحانى) :

« إن من أجل محبة كل إنسان لنفسه يكون استحسانه للحَسَن منها فوق حقه ، واستقباحه للقبيح منها دون حقه ، ويكون استقباحه للقبيح واستحسانه للحسن من غيره — إذا كان بريئا من حبه وبغضه — بمقدار حقه ؛ لأن عقله حينئذ صاف لا يشوبه ولا يجاذبه الهوى .

« ومن أجل ما ذكرنا فإنه إذا كانت للإنسان أدنى فضيلة عَظُمت عند نفسه وأحب أن يمدح عليها فوق استحقاقه ، وإذا تأكدت فيه هذه الحالة صار معجبا ؛ ولا سيما إن وجد قوما يساعدونه على ذلك ، ويبلغون من تزكيته ومدحه ما يحب »

ومما يؤيد هذا قوله عليه السلام « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ماهو أشد وهو الإعجاب » ولهذا قال عليه السلام : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » ومعناه احرموهم مما أرادوا لئلا يزيدون فى المدح فيقع الإعجاب لمدحهم .

وهذا المعنى الذى أشرنا إليه قد أهمله اليوم جل الناس ، وعملوا على مقتضى النهى وارتكبوه ؛ فكثر المدح عندهم بعضهم لبعض فى الظاهر مع اضطغان فى النفوس ، وإحَنٍ فى الصدور ، وعداوة فى البواطن ؛ وجعلوا نفس ارتكاب النهى من النبل والكيس .

قال عليه السلام : « يأتى فى آخر الزمان قوم إخوان العلانية أعداء السريرة . قيل وكيف يكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون برهبة بعضهم من بعض ، ورغبة بعضهم فى بعض ؛ فالحذر الحذر من نبل وكيس » .

يقول الغزالى فى كتابه (الإحياء) :

المدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح .

فأما المادح :

فالأولى : أنه قد يفرط فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان مَن مدح إماما أو أحداً بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه .

الثانية : أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة : أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه .

الرابعة : أنه قد يُفرح الممدوح وهو ظالم فاسق وذلك غير جائز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق » .

وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يُعْصَى الله تعالى فى أرضه . فإن الظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ، لا أن يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره المدح من وجهين :

أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان .

قال الحسن رضى الله عنه : كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله ، وسمعها الجارود .

فلما دنا من عمر خفقه بالدّرة ، فقال الجارود مالى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال مالى ولك ؛ أما لقد سمعتها ! قال سمعتها فماذا فيها ؟

قال عمر : خشيت أن يخالط قلبك منها شىء ، فأحببت أن أطأطئ منك .

الثاني : هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ؛ ومن أعجب بنفسه قلّ تشمُّره ، وإنما يتشمَّر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ؛ ولهذا قال عليه السلام : « قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » .

* * *

فالإسراف في المدح من الخطباء والشعراء مذمة ، والمبالغة في الثناء مهلكة ، وهو سمة من سمات النفاق ؛ وإنما يكثر في عصور الاضطهاد والاستبداد ، والحجْر على الحريات ، والاعتداء على الكرامات ، حيث يكثر الطغاة والمتجبرون ، ويشيع المتملقون والمنافقون . وقديما قال علي بن أبي طالب : « من مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك » .



المنايا ولا الهوان

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم في شأنه ما عنانا

وتولّوا بغُصّةٍ كلهمْ منْـه وإن سرّ بعضَهمْ أحيانا

ربما تُحْسِنُ الصَّنيعَ لياليـهِ ولكنْ تكدِّرُ الإحسانا

وكأنا لم يرضَ فينا بريبِ الدَّهرِ حتى أعانه من أعانا

كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ركّبَ المرءُ في القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

« المتنبي »

صفحات من الأدب السياسي

للأستاذ محمد المبارك

نائب دمشق

إن في ميدان الحياة السياسية آراء وأفكاراً ، وعواطف ومشاعر للأفراد والجماعات لابد للأدب الحي من أن يعبر عنها ، وللأديب المتصل بحياة أمته أن يصورها ؛ فللاتجاهات الاشتراكية والرأسمالية ، وللثورات الشعبية كما للنظم الفردية الاستبدادية مؤرخوها وأدباؤها من كتاب وشعراء وقصصيين .

وقد يخيل للناظر نظرة سطحية في الأدب العربي أنه فقير من هذه الناحية ، وأنه إن صوّر الحياة السياسية صوّرها من جانب دون جانب . فتاريخ الشعر السياسي في أدبنا ، كما يخيل لهذا الفاحص السطحي ، مجموعة من قصائد المديح : مديح الملوك والأمراء والقواد ، تصور العاطفة الصادقة حيناً ، والتزلف والنفاق في أغلب الأحيان ، فيتساءل أين تصوير الشعب على حقيقته في مشاهده وصوره وعواطفه ونزواته وتياراته وأفكاره ؟ والواقع أن هذه القصائد أشبه بخطب الحفلات والمهرجانات ونشرات الدعاية والإذاعة في عهود الطغيان والاستبداد ؛ فهل يصح أن نقول عنها إنها تاريخ لحقبة من الزمن ؟ .

إذا كان كثير من مؤرخي الأدب العربي قديماً وحديثاً أعطونا عنه هذه الصورة حتى كأنهم كتبوه في قصور الملوك والأمراء وفي كنفهم وتحت رعايتهم ، فليس ذلك ذنب الأدب العربي ؛ ففي الأدب العربي صفحات مشرقة من تصوير الحياة الشعبية والحياة السياسية ، ومن تصوير الثورة على الظلم ، شع نورها في بعض العهود الصافية ، ثم غشيتها سحابة من ظلام ، وتطاول عليها الأمد ولكن نورها لم ينطفئ .

إننا بحاجة إلى أن ننظر إلى أدبنا نظرة جديدة قد تقلب تاريخه رأساً على عقب ؛ فإذا بشعراء كانوا يتربعون على عروش الشعر ينخفضون ، وآخرين من المغمورين يتقدمون إلى الصف الأول . وإذا بالشاعر نفسه تتغير نظرتنا فى شعره فتحيي بعض آثاره التي اندثرت ، وينطوى بعض شعره الذى كانت له المنزلة الأولى . ومن أمثلة ذلك فى الشعر القصائد الكثيرة التي قيلت فى المآسى الاجتماعية العامة ؛ كالتى قيلت فى نكبة الأندلس ، وكقصيدة ابن الرومى فى مأساة البصرة . ولابن المعتز أرجوزة طويلة وصف فيها اضطراب الحال فى عصره ، وما كان يصيب الناس من مصادرة للأموال أو زج فى السجون ، وما كان من ضروب الاضطهاد لمختلف طبقات الشعب ، وما كان يحدث من مفاجآت ينتقل فيها ذوو النفوذ والسلطان إلى أعماق السجون ، وأهل السجون إلى أعلى مقامات الدولة . صوّر كل ذلك تصويراً حيا مليئا بالحوادث والمشاهد والصور ؛ ولكن هذه القصيدة لم تشتهر اشتهار سائر شعره الذى يصور فيه رفاهية الأمراء والخلفاء ، ونظرتهم إلى الطبيعة من خلال تلك الحياة المترفة المصطنعة . وفى شعر ابن الرومى صور ومشاهد كثيرة من الحياة الاجتماعية فى عصره .

وأما النثر السياسى والاجتماعى فى أدبنا منه الشىء الكثير ؛ أذكر منه على سبيل المثال القصص الشعبية المبثوثة فى كتب الجاحظ ، وخطب الخوارج ، ورسائل بعض الخلفاء .

وبودى الآن أن أعرض لجانب من الحياة السياسية فى أدبنا هو منها فى الصميم ، وهو الثورة على الظلم ؛ لأستعرض من آثار الأدب العربى ما يصور هذا الجانب على أنه فكرة ومبدأ ، وعلى أنه إحساس وعاطفة . وإليكم مثلا من هذا الأدب الثائر ما قاله أحد أفراد الرعية لخليفة عُرِف بالسطوة والجبروت :

بينما المنصور يطوف ليلا إذ سمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين وأقبل مع الرسول فسلم عليه . فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد

فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؛ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى . قال يا أمير المؤمنين إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك واقتصرت على نفسى ففيها لى شاغل . فقال أنت آمن على نفسك فقل . فقال :

إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت . قال : ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى ! قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بألا يدخل عليك من الناس إلاّ فلان وفلان — نفر سميتهم — ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير — ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق — فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يحجبوا عنك تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه ؛ فأتمروا بألا يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا عابوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم مَن دونهم ؛ فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك فإن المتظلم منه له بهم حرمة فأجابهم خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا أجهد

وأحرج وظهرت صرخ بين يديك فضُرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر فلاتنكر ؛ فما بقاء الإسلام على هذا ! وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً ، فحثه جلساؤه على الصبر فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة بى ولكنى أبكى لمظلوم بالباب يصرخ ولم أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب . نادوا فى الناس ألا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفى نهاره وينظر هل يرى مظلوماً . فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته برعيته شح نفسه . وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت نبيه ولا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك. فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبراً فى الطفل يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست بالذى تعطى بل الله يعطى من يشاء مايشاء . وإن قلت إنما أجمع المال لتشديد السلطان فقد أراك الله عبراً فى بنى أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حتى أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت إنما أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين . هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور: لا . قال فكيف تصنع بالملك الذى خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الأليم قد رأى ما قد عقد عليه قلبك وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه رجلاك هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أخلق ! ويحك فكيف أحتال لنفسى . قال : يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاما يفزعون إليهم فى دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى . قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفىء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأمة . وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد .

ليس هذا الأثر فريداً فى تاريخ أدبنا ، فقد جمع ابن قتيبة وهو من أبناء القرن الثالث للهجرة عدداً من هذه الآثار فى فصل خاص من كتابه (عيون الأخبار) .

ليس هذا الأثر إلا حلقة من سلسلة ، ونتيجة لتربية شعبية عامة جعلت الأمة تدين لعقائد لا لأشخاص ، وجعلت غايتها إقامة العدل وإعلاء الحق لا تعظيم الرؤساء وإعلاء شأنهم . إنها مدرسة تخرج بها أفراد الأمة حتى صاروا يصدرون عن عقيدة لا عن منفعة ، وعن عزة بالحق لا عن خضوع لنفر من الناس ؛ فقد كان يرى المسلمون الأولون فى خلفائهم وأمرائهم خدّاماً للحق وأجراء للأمة ، إن استقاموا على ذلك أعينوا ، وإن انحرفوا نُصحوا ، فإن طغوا أصبح الناس فى حل من طاعتهم .

إن هذه النظرة تتجلى فى حياة العرب فى العهد الأول من ظهور الإسلام وليدة فطرة واستعداد ، ونتيجة تربية وإعداد : أما الفطرة والاستعداد فقد هيأهم الله لها قبل الإسلام فكان فى العرب شعور بالمساواة وإباء عن قبول الظلم ؛ وذلك فى حدود ضيقة من نظامهم القبلى ، وأما التربية والإعداد فقد تمت خلال بضع وعشرين سنة تتنزل فيها آيات الكتاب الكريم فتغذى النفوس بالمشاعر المثالية ، والعقول بالأفكار التى تشعر الإنسان بكرامته وتبعثه على دفع الظلم .

إن للأدب السياسى ولا سيما فكرة الثورة على الظلم صفحات مشرقة رائعة فى كتاب الله الخالد ؛ فقد انبثت فكرة محاربة الظلم خلال سوره وفى ثنايا آياته ، فكانت تسلك إلى الظهور سبيل تحطيم الآلهة المزيفة فى أى صورة ظهرت ، وفى فكرة تكريم بنى آدم وعدم الخضوع لغير الله فكانت تتهاوى الأصنام وتتهافت العظات والزعامات المتألهة الحائلة بين الإنسان والسمو إلى اللا نهاية والخلود أمام عظمة الله وحده . وقد عرض القرآن صوراً من الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكان فى عرضه هذا رامياً إلى الاعتبار وتكوين الأهداف الخلقية فى النفوس ؛ حتى إنه خصص سورة (القصص) لفكرة واحدة هى تقويض عروش الظلم المتأله على البشر فى ميدان السلطان السياسى والمالى .

فى هذه السورة شخصيتان تمثل إحداهما الحاكم المتأله أو الطاغية الذى يقيم

من نفسه إلهاً للناس وهو فرعون ، وتمثل الثانية المتمول الباغى الذى يتخذ من كنوزه أداة للفساد فى الأرض أو البغى على الناس وهو قارون .

وتدور السورة حول هاتين الفكرتين وهاتين الشخصيتين فى أسلوب قصصى اختص به القرآن ، وتنتهى بتحطيمهما والوصول بهما إلى أسوأ مصير . وفى مقدمة السورة خلاصة القصة ونتيجتها :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

ثم تتوالى حوادث القصة مرحلة بعد مرحلة ، ويبدو العمل البشرى فى مقاومة الظلم يظاهره القدر الإلهى حتى إذا ما كان الظلم فى سكرة غروره وسخف استعلائه حتى يتحدى الخالق فيقول : « يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين »

ويستمر فى خيال غلوائه : « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » إذا به يفاجأ بسوء المصير : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »

أما الشخصية الثانية التى تمثل طغيان الثروة وفساد الترف فإليك صورتها فى هذه الآيات التى تصور غناه وبغيه ، وتحكى قول الناصحين إلى جانب غروره وفساد تفكيره :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم

عندى أوَلم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً » .

وهذا قارون فى موكبه الفخم وحديث الناس من حوله من مفترين وغير مفترين :

« فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أُوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أُوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وهذا قضاء الله فى طاغية المال : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » . وأما أولئك الذين تمنوا مثل ثروته فكيف أصبحوا ؟ « وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

وختمت القصتان بفكرة هى مغزاها وفلسفتهما :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وتختم السورة بأروع خاتمة ؛ بدعوة إلى الإعراض عن تأليه القيم الزائلة والأغراض المؤقتة الزائفة ومن أكبرها السلطان والمال ، والإيمان بإله واحد له وحده الخلود لا للمال الهالك ، وله وحده الحكم لا للسلطان الزائل :

« ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » .

من القديم :

طريقان

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »

للامام الشهيد حسن البنا

« أيحسبُ الإنسانُ أنْ يُتركَ سُدًى »

وقد حُدِّد له سبيله ، وخط بين يديه طريقه ، ووضعت أمامه أعلام غايته وحكمة خلقته :

« أفحَسِبتُمْ أنَّمَا خَلقناكُم عبثاً وأنكم إلينا لاترْجَعون . فتعالى اللهُ الملكُ الحق »

والسعداء من صادفتهم العناية ، واجتذبتهم أضواء الهداية ، وانجابت عن أبصارهم سحائب الغفلة ؛ فأدركوا هذه الحقيقة ، وتعرّفوا مراحل الطريق ، وسلكوا قدماً إلى الغاية ، وفقهوا قول العلي الكبير :

« ففِرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مبينٌ . ولا تجعلوا مع اللهِ إلهاً آخرَ إني لكم منه نذيرٌ مُبينٌ » .

وكل ما عوّقك عن الوصول إليه ، أو حولك عن الاتجاه نحوه ، أو حال بينك وبين الاعتماد عليه من هوى ، غالب ، أو غرض جامح ، أو عرض زائل ؛ فهو إله من دونه :

« أَرأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ من بعدِ اللهِ » .

أيها الإنسان : بين يديك طريقان لا ثالث لهما : طريق ممهدة ظليلة مشرقة جميلة ، يحف بها الروح والريحان ، ويحيط بها الجمال من كل مكان ، أولها اليقين والإيمان ،

ومراحلها الاستقامة وطاعة الرحمن ، ونهايتها الجنة والرضوان ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وطريق مقفرة موحشة ، مظلمة مهلكة ، أولها الجحود والنكران ، ومراحلها الإثم والعصيان ، وآخرها الجحيم والنيران :

« فأمَّا منْ طَغَى وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيا فإنَّ الجحيم هى المأْوَى » .

ولا يستوى الطريقان أبداً :

« أفمَنْ كانَ مُؤمِناً كمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَستَوُونَ . أما الَّذينَ آمَنُوا وعملوا الصَّالحات فَلَهُمْ جنَّاتُ المأْوَى نُزُلاً بما كانوا يَعمَلون . وَأمَّا الَّذين فَسقُوا فمأْوَاهُم النَّارَ كلمَّا أرادُوا أنْ يخرُجُوا مِنها أُعِيدُوا فيها وقيل لَهمْ ذوقوا عَذابَ النَّار الذى كُنتمْ بِهِ تُكَذِّبون » .

« أفنَجعَلُ المُسلمين كالمجرِمين ؟ ما لَكم كَيف تحكمُون ؟ ! » « أمْ نجعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ كالمفسِدين فى الأرض ، أمْ نجعلُ المتقين كالفجَّار ؟ »

فالصالحون العاملون المخلصون إلى خير فى الدنيا وإلى سعادة فى العقبى ، والعكس بالعكس :

« مَن عمِل صَالحاً مِن ذكَر أو أُنثى وهُوَ مؤمن فلنُحْيِيَنَّهُ حيَاةً طيبَةً ولَنجزِينهم أجْرَهم بأَحسن ما كانوا يعملون » .

« ومَن أعرضَ عن ذكرى فإنَّ له معيشةً ضنكا ، ونحشرهُ يوم القيامة أعمى » .

وكما يختلف الأثر فى الأفراد ، يختلف فى الأمم والجماعات ؛ فالأمة المستمسكة بهذا الهدى الربانى ، السالكة على الطريق الإلهى ، الآخذة عن الوحى السماوى ، مؤيدة فى دنياها بالعزة والسيادة ، ولها فى الآخرة الحسنى وزيادة ، والعكس بالعكس كذلك :

« ولو أَنَّ أَهلَ القرَى آمنوا واتقَوْا لفتَحنا عليهم بركاتٍ مِنَ السماءِ والأرض »

« ولو أنهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ ومَا أُنزلَ إليهم من ربهم لأكلوا مِنْ فَوْقهم

ومن تحتِ أرجُلِهم » « وضرَب اللهُ مثلاً قريةً كانت آمِنَةً مطمئنة يأتيها رزقُهَا رغداً من كلِّ مكان فكفرَت بأنْعُم الله فأذَاقَها اللهُ لباسَ الجوع والخوْف بما كانوا يَصْنَعُون » .

ومشكلة الدنيا اليوم ، ليست مشكلة مادية بقدر ما هى مشكلة روحية ، ليست مشكلة الفقر والمرض والجهل بقدر ما هى مشكلة الظلم والطمع والقوة وفقدان العدالة والرحمة والإنصاف .

فيا أيها الإنسان : إلى متى والنذر بين يديك ، والشواهد حاضرة لديك ، ولم تنس بعد آثار درس الأمس ، وقد تلقته الإنسانية ، كأقسى ما يكون طول ست سنوات ، أكلت الأخضر واليابس ؛ والنعل حاضرة إن عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة إن أصر المذنب ، والبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، وكما تدين تدان :

« فَهلْ ينتَظِرُون إلاّ مِثْلَ أيام الذينَ خَلَوْا مِنْ قبلِهم ؟ قُلْ فانتَظرُوا إنى معَكم مِنَ المُنتَظرين . ثمَّ نُنَجى رُسُلنا والذينَ آمنوا كذلِكَ حقًّا علَيْنا نُنْجى المؤمِنين » .

والقلوب بيد الله :

« واللهُ غالب عَلَى أمرِه ولـكِنَّ أكثرَ الناس لا يعلمُون » .

حكم

* حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

* أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها . « ابن عطاء السكندرى »

تغير الأحكام بتغير الأزمان

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق السورية

من المقرر فى فقه الشريعة أن لتغير الأوضاع والأحوال الزمنية تأثيرا كبيرا فى كثير من الأحكام الشرعية الاجتهادية ، فإن هذه الأحكام تنظيم أوجبه الشرع يهدف إلى إقامة العدل وجلب المصالح ودرء المفاسد ؛ فهى ذات ارتباط وثيق بالأوضاع والوسائل الزمنية وبالأخلاق العامة . فكم من حكم كان تدبيرا نافعا وعلاجا ناجعا لبيئة فى زمن معين ، فأصبح بعد جيل أو أجيال لا يوصل إلى المقصود منه ، أو يفضى إلى عكسه ، بتغير الأوضاع والوسائل والأخلاق .

وعن هذا أفتى الفقهاء المتأخرون من شتى المذاهب الفقهية فى كثير من المسائل بعكس ما أفتى به أئمة مذاهبهم وفقهاؤها الأولون ، وصرح هؤلاء المتأخرون بأن سبب اختلاف فتواهم عمن سبقهم هو اختلاف الزمان وفساد الأخلاق ؛ فليسوا فى الحقيقة مخالفين للسابقين من فقهاء مذاهبهم ، بل لو وُجد الأئمة الأولون فى عصر المتأخرين ، ورأوا اختلاف الزمان والأخلاق ، لعدلوا إلى ما قال المتأخرون .

وعلى هذا الأساس أُسست القاعدة الفقهية القائلة : « لا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغير الأزمان » .

وقد اتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أن الأحكام التى تتبدل بتبدل الزمان وأخلاق الناس هى الأحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية : أى التى قررها الاجتهاد بناء على القياس أو على دواعى المصلحة ، وهى المعنية بالقاعدة الآنفة الذكر .

أما الأحكام الأساسية التى جاءت الشريعة لتأسيسها وتوطيدها بنصوصها الأصلية الآمرة الناهية ، كحرمة المحرمات المطلقة ، وكوجوب التراضى فى العقود ، والتزام الإنسان بعقده ، وضمان الضرر الذى يلحقه بغيره ، وسريان إقراره على نفسه دون

غيره ، ووجوب منع الأذى وقمع الإجرام ، وسد الذرائع إلى الفساد ، وحماية الحقوق ، ومسئولية كل مكلف عن عمله وتقصيره ، وعدم مؤاخذة برىء بذنب غيره ، إلى غير ذلك من الأحكام والمبادئ الشرعية الثابتة التي جاءت الشريعة لتأسيسها ومقاومة خلافها ، فهذه لا تتبدل بتبدل الأزمان ، بل هي الأصول التي جاءت بها الشريعة لإصلاح الأزمان والأجيال ، ولكن وسائل تحقيقها وأساليب تطبيقها قد تتبدل باختلاف الأزمنة والمحدثات .

فوسيلة حماية الحقوق مثلا وهو القضاء كانت محاكمه تقوم على أسلوب القاضي الفرد ، وقضاؤه على درجة واحدة قطعية ، فيمكن أن تتبدل إلى أسلوب محكمة الجماعة ، وتعدد درجات المحاكم بحسب المصلحة الزمنية التي أصبحت تقتضي زيادة الاحتياط لفساد الذمم .

فالحقيقة أن الأحكام الشرعية التي تتبدل بتبدل الزمان مهما تغيرت بتغيره فإن المبدأ الشرعي فيها واحد ، وهو إحقاق الحق ، وجلب المصالح ودرء المفاسد . وما تبدل الأحكام إلا تبدل الوسائل والأساليب الموصلة إلى غاية الشارع ؛ فإن تلك الوسائل والأساليب في الغالب لم تحددها الشريعة الإسلامية ، لكي يختار منها في كل زمان ماهو أصلح في التنظيم نتاجاً ، وأنجح في التقويم علاجاً .

عوامل تغير الزمان نوعان : فساد وتطور

فقد يكون تغير الزمان الموجب لتبديل الأحكام الفقهية الاجتهادية ناشئا عن فساد الأخلاق وفقدان الورع وضعف الوازع . مما يسمونه : فساد الزمان .

وقد يكون ناشئا عن حدوث أوضاع تنظيمية ووسائل زمنية جديدة ، من أوامر قانونية مصلحية ، وترتيبات إدارية ، وأساليب اقتصادية ، ونحو ذلك .

وهذا النوع الثاني أيضاً كالأول موجب لتغيير الأحكام الفقهية الاجتهادية المقررة قبله إذا أصبحت لا تتلاءم معه ، لأنها تصبح عندئذ عبثا أو ضررا ، والشريعة منزهة عن ذلك ؛ وأنه لاعبث في الشريعة كما قال الشاطبي في الموافقات . وسنبين فيما يلي أمثلة لتغيير الأحكام لتغير الأزمان بنوعيه .

أولا : تغير الأحكام الاجتهادية لفساد الزمان :

فمن المسائل التي غير الفقهاء المتأخرون أحكامها التي قررها اجتهاد الأئمة الأولين ، وعللوا ذلك بفساد الزمان : أي بفساد الأخلاق العامة ، القضايا التالية :

(ا) من المقرر في أصل المذهب الحنفي أن الديون تتعلق بذمة الشخص ، فتبقى أموال المدين حرة ينفذ تصرفه فيها ، ولو كانت ديونه أكثر من أمواله ، فلو وقف المدين غير المحجور عليه أمواله كلها نفذ وقفه فيها ولم يبق للدائن مايستوفون . وهذا هو الحكم القياسي في أصل المذهب .

فلما فسدت ذمم الناس وضعف حرصهم على أداء الحقوق أصبح المدين يلجأ إلى تهريب أمواله من وجه الدائنين عن طريق وقفها على نفسه وذريته ثم على جهة خيرية .

فلما لحظ المتأخرون من فقهاء المذهب ذلك ، أفتى المولى أبو السعود مفتي الروم بعدم نفاذ وقف المدين إلا فيما يزيد عن وفاء الدين من أمواله ، خلافا للأصل القياسي في المذهب ، واستصدر بذلك أمراً سلطانيا وسجله في « معروضاته » وأقره فقهاء عصره ومن بعدهم[1] .

ومن الواضح أن هذا التدبير الفقهي الذي لجأ إليه فقهاء الحنفية المتأخرون في صيانة حقوق الدائنين لا يختص بوقف المدين ، بل إذا شاع لجوء المدينين إلى تهريب أموالهم من وجه الدائنين بتصرفات أخرى غير الوقف ، كالبيع والهبة كما في زماننا اليوم ، فإنه يفتى أيضاً بعدم نفاذها ، ويحق للدائنين أن يبطلوها إذا لم يجيزوها لأن العلة واحدة في الوقف وغيره . وإنما نصوا على الوقف لأنه الطريقة التي شاعت إذ ذاك في تهريب المديونين أموالهم من وجه الدائنين . وبهذا التعميم على طريقة الوقف وغيره من التصرفات تقضي نصوص المذهب الحنبلي خلافاً للأصل القياسي فيه أيضاً .

(ب) في أصل المذهب الحنفي أن الغاصب لا يضمن قيمة منافع المغصوب عن

---

(١) أبو السعود هو محمد بن محمد العمادي من أهالي « اسكليب » وهي قرية من نواحي بلاد الروم ، ولذا يلقب : مفتي الروم . وتوفي سنة ٩٨٢ هـ ، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي في عهد السلطانين سليم وسليمان . وكان المفتي العام للدولة العلية العثمانية وقاضي القسطنطينية وبروسة . عاش محترما معظما مدة حياته . وكان يجتهد في بعض المسائل . وله آراء انفرد بها وأخذ بها فقهاء عصره فمن بعدهم . وله شعر عربي جيد ، وتفسير للقرآن مشهور .

مدة الغصب ، بل يضمن العين فقط إذا هلكت أو تعيبت ، لأن المنافع عندهم ليست متقومة فى ذاتها ، وإنما تتقوم بعقد الإجارة ، ولا عقد فى الغصب .

ولكن المتأخرين من فقهاء المذهب الحنفى نظروا تجرؤ الناس على الغصب ، وضعف الوازع الدينى فى نفوسهم ، فأفتوا بتضمين الغاصب أجر المثل عن منافع المغصوب إذا كان المغصوب مال وقف أو مال يتيم أو معدًّا للاستغلال ، على خلاف الأصل القياسى فى المذهب ، زجراً للناس عن العدوان ، لفساد الزمان .

وعلى هذا استقر العمل .

واستناداً إلى العلة نفسها تتقبل قواعد الاجتهاد الحنفى مبدأ تضمين بدل منافع المغصوب مطلقا فى جميع الأموال ، لا فى هذه الأنواع الثلاثة فقط ، لازدياد فساد الذمم ، وكثرة الطمع فى أموال الغير ، والتجاوز على الحقوق .

وهذا التعميم فى تضمين المنافع توجبه النصوص القانونية لدينا اليوم ، وفيه المصلحة .

(ح) فى أصل المذهب الحنفى أن الزوجة إذا قبضت معجل مهرها تلزم بمتابعة زوجها حيث شاء .

ولكن المتأخرين لحظوا انقلاب الأخلاق وغلبة الجور ، وأن كثيراً من الرجال يسافرون بزوجاتهم إلى بلاد نائية ليس لهن فيها أهل ولا نصير ، فيسيئون معاملتهن ويجورون عليهن ؛ فأفتى المتأخرون بأن لا تجبر المرأة على متابعة زوجها ، ولو قبضت معجل مهرها ، إلى مكان إلا إذا كان وطنا لها ، وقد جرى فيه عقد الزواج بينهما ؛ وذلك لفساد الزمان وأخلاق الناس . وعلى هذا استقرت الفتوى والقضاء فى المذهب .

(د) فى أصل المذهب الحنفى وغيره أن القاضى يقضى بعلمه الشخصى فى الحوادث : أى أن علمه بالوقائع المتنازع فيها يصلح مستندا لقضائه ويغنى المدعى عن إثبات مدعاه بالبينة ، فيكون علم القاضى بواقع الحال هو البينة . وفى ذلك أقضية مأثورة عن عمر وغيره . لكن لوحظ فيما بعد أن القضاة قد غلب عليهم الفساد والسوء وأخذ الرشاء ، ولم يعد يختار للقضاء الأوفر ثقة وعفة وكفاية ، بل الأكثر تزلفا إلى الولاة ، وسعيا فى استرضائهم ، وإلحافا فى الطلب .

لذلك أفتى المتأخرون بأن لا يصح أن يقضى القاضى بعلمه الشخصى فى الوقائع ،

بل لابد أن يستند قضاؤه إلى البينات المثبتة فى مجلس القضاء . حتى لو شاهد القاضى بنفسه عقدا أو قرضا أو واقعة بين اثنين خارج مجلس القضاء ، ثم ادعى بها أحدهما وجحدها الآخر فليس للقاضى أن يقضى للمدعى بلا بينة ؛ إذ لو ساغ ذلك بعد مافسدت ذمم كثير من القضاة لزعموا العلم بالوقائع زوراً وميلاً مع الأقوى وسيلة من الخصمين ، فبهذا المنع ، وإن ضاع بعض الحقوق لفقدان الإثبات ، يدفع باطل كثير . وهكذا استقر عمل المتأخرين على عدم نفاذ قضاء القاضى بعلمه .

على أن للقاضى أن يعتمد علمه فى غير القضاء من أمور الحسبة والتدابير الإدارية الاحتياطية كما لو علم ببينونة امرأة مع استمرار الخلطة بينها وبين زوجها ، أو علم بغصب مال ، فإن له أن يحول بين الرجل ومطلقته ، وأن يضع المال المغصوب عند أمين إلى حين الإثبات .

(هـ) من المبادئ المقررة فى أصل المذهب أن العمل الواجب على شخص شرعا لا يصح استئجاره فيه ولا يجوز له أخذ أجرة عليه .

وعلى هذا لو امتنع الغاصب عن رد المغصوب إلى مكان الغصب إلا بأجرة ، فدفعها له المغصوب منه لا يستحقها ، بل له استردادها منه ، ولو امتنعت الزوجة عن القيام بالعمل الواجب عليها شرعا ضمن البيت فاستأجرها لأجله الزوج لا تستحق الأجرة ، ومن فروع هذا المبدأ الفقهى أن القيام بالعبادات والأعمال الدينية الواجبة ، كالإمامة وخطبة الجمعة وتعليم القرآن والعلم ، لا يجوز أخذ الأجرة عليها فى أصل المذهب ، بل على المقتدر أن يقوم بذلك مجانا لأنه واجب دينى .

غير أن المتأخرين من فقهاء المذهب لحظوا قعود الهمم عن هذه الواجبات ، وانقطاع الجرايات من بيت المال عن العلماء مما اضطرهم إلى التماس الكسب ، حتى أصبح القيام بهذه الواجبات غير مضمون إلا بالأجر ؛ لذلك أفتى المتأخرون بجواز أخذ الأجور عليها ، حرصا على تعليم القرآن ونشر العلم وإقامة الشعائر الدينية بين الناس .

(و) إن الشهود الذين يقضى بشهادتهم فى الحوادث يجب أن يكونوا عدولا : أى ثقات ، وهم المحافظون على الواجبات الدينية ، المعروفون بالصدق والأمانة . وعدالة الشهود شريطة اشترطها القرآن وأيدتها السنة ، وأجمع عليها فقهاء الإسلام .

غير أن المتأخرين من فقهائنا لحظوا ندرة العدالة الكاملة التى فسرت بها النصوص، لفساد الزمان وضعف الذمم والحس الدينى الوازع، فإذا تطلب القضاة دائما نصاب العدالة الشرعية فى الشهود ضاعت الحقوق لامتناع الإثبات، فلذا أفتوا بقبول شهادة الأمثل فالأمثل من القوم حيث تقل العدالة الكاملة.

ومعنى الأمثل فالأمثل: الأحسن فالأحسن حالا بين الموجودين، ولو كان فى ذاته غير كامل العدالة بحدها الشرعى، أى أنهم تنازلوا عن اشتراط العدالة المطلقة إلى العدالة النسبية.

(ز) كذلك أفتى المتأخرون فى إثبات الأهلة لصيام رمضان وللعيدين بقبول رؤية شخصين، ولو لم يكن فى السماء علة تمنع الرؤية من غيم أو ضباب أو غبار، بعد أن كان فى أصل المذهب الحنفى لا يثبت إهلال الهلال عند صفاء السماء إلا برؤية جمع عظيم، لأن معظم الناس يلتمسون الرؤية، فانفراد اثنين بادعاء الرؤية مظنة الغلط أو الشبهة.

وقد علل المتأخرون قبول رؤية الاثنين بقعود همم الناس عن التماس رؤية الهلال، فلم تبق رؤية اثنين منهم مظنة الغلط إذا لم يكن فى شهادتهما شبهة أو تهمة تدعو إلى الشك والريبة.

هذه أمثلة قليل من كثير من المسائل التى تغيرت فيها الآراء الفقهية والفتاوى وعمل القضاء، لا لاختلاف فى الأنظار والمبادئ الفقهية التى بنيت عليها الأحكام الأولى، بل بسبب: تغير الزمان أو فساد الأخلاق العامة، كقعود الهمم عن الواجبات، وفساد الذمم فى المعاملات، وفشو الظلم، وضعف الوازع الدينى عن أكل الحقوق بالباطل الخ.

ثانياً: تغير الأحكام الاجتهادية لتطور الوسائل والأوضاع:

١ — قبل إنشاء السجلات العقارية الرسمية التى تحدد العقارات وتعطى كلا منها رقما خاصا، كان التعاقد على العقار الغائب عن مجلس العقد لابد لصحته من ذكر حدود العقار: أى مايلاصقه من الجهات الأربع، ليتميز العقار المعقود عليه عن غيره، وفقا لما تقضى به القواعد العامة من معلومية محل العقد.

ولكن بعد إنشاء السجلات العقارية فى كثير من الممالك والبلدان اليوم أصبح يكتفى قانونا فى العقود بذكر رقم محضر العقار دون ذكر حدوده .

وهذا ما يوجبه فقه الشريعة ، لأن الأوضاع والتنظيمات الزمنية أوجدت وسيلة جديدة أسهل وأتم تمييزا وتمييزا للعقار من ذكر الحدود فى العقود العقارية ؛ فأصبح اشتراط ذكر الحدود عبثا ، وقد قدمنا أن لا عبث فى الشريعة .

٢ — وكذلك كان تسليم العقار المبيع إلى المشترى لا يتم إلا بتفريغ العقار وتسليمه فعلا إلى المشترى ، أو تمكينه منه بتسليم مفتاحه ونحو ذلك . فإذا لم يتم هذا التسليم يبقى العقار معتبرا فى يد البائع ، فيكون هلاكه على ضمانه ومسئوليته وفقا للأحكام العامة الفقهية فى المبيع قبل التسليم .

ولكن بعد وجود الأحكام القانونية التى تخضع العقود العقارية للتسجيل فى السجل العقارى استقر الاجتهاد القضائى أخيرا لدينا على اعتبار التسليم حاصلا بمجرد تسجيل العقد فى السجل العقارى . فمن هذا التاريخ ينتقل ضمان هلاك المبيع من عهدة البائع إلى عهدة المشترى ؛ لأن تسجيل البيع فيه تمكين المشترى أكثر مما فى التسليم الفعلى ، إذ العبرة فى الملكية العقارية قانونا لقيود السجل العقارى لا للأيدى والتصرفات . وبتسجيل البيع لم يبق البائع متمكنا أن يتصرف فى العقار المبيع بعقد آخر استنادا إلى وجوده فى يده ، وجميع حقوق الدعاوى المتفرعة عن الملكية ، كطلب نزع اليد وغير ذلك ، تنتقل إلى المشترى بمجرد التسجيل .

فبناء على ذلك يصبح من الضرورى فى فقه الشريعة أن يعتبر لتسجيل العقد العقارى حكم التسليم الفعلى للعقار فى ظل هذه الأوضاع القانونية التنظيمية الجديدة .

فمن مجموع هذه الأمثلة وأشباهها يتضح أن قضية تغير الأحكام لتغير الزمان لا يصح أن تعتبر من صميم نظرية العرف كما يعتبرها بعض الباحثين ، بل هى من نظرية المصالح المرسلة ، فإن قعود الهمم ، وفساد الذمم ، وقلة الورع ، وكثرة الطمع ، والمستحدثات الجديدة ، ليست أعرافا يتعارفها الناس ويبنون عليها أعمالهم ومعاملاتهم ، وإنما هى انحلال فى الأخلاق يضعف الثقة ، أو اختلاف فى وسائل التنظيم الزمنى . وكل ذلك يجعل الأحكام التى أسسها الاجتهاد فى ظروف مختلفة عن الظروف الجديدة

غير صالحة لتحقيق الغاية الشرعية من تطبيقها ، فيجب أن تتغير إلى الشكل الذى يتناسب مع الأوضاع القائمة ، ويحقق الغاية الشرعية من الحكم الأصلى .

وذلك نظير السفينة الشراعية التى تقصد اتجاها معينا فى ريح شمالية مثلا ، فإن شراعها يقام على شكل يسير بالسفينة فى الاتجاه المطلوب ؛ فإذا انحرف مهب الريح وجب تعديل وضع الشراع إلى شكل يضمن سير السفينة فى اتجاهها المقصود وإلا انحرفت أو توقفت .

وقد قال العلامة ابن عابدين رحمه الله فى رسالته (نشر العرف) ما نصه : —

« كثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان ، لتغير عرف أهله ، أو لحدوث ضرورة ، أو لفساد أهل الزمان ، بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولاً للزم منه المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد . ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد فى مواضع كثيرة بناها على ما كان فى زمنه ، لعلمهم بأنه لو كان فى زمنهم لقال بما قالوا به أخذا من قواعد مذهبه » اهـ .

وقال الشهاب القرافى أيضا فى (الفروق) ، تحت الفرق /٢٨/ المسألة الثالثة ج ١ ص /١٧٧/ ما نصه :

« الجمود على المنقولات أبدا ضلال فى الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين ، والسلف الماضين » اهـ .

ويقول ابن القيم رحمه الله فى فصل (تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد) :

« هذا فصل عظيم النفع جداً ، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل إليه ، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لاتأتى به ؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها : فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل[1] ».

(١) (ر : إعلام الموقعين طبعة المنيرية ج ٣ ص / ١ / وطبعة فرج الله زكى الكردى ج ٣ ص / ٢٧) .

خاطرة :

غلام الرياض !

خرجنا[1] بعد العصر فى جولة نتعرف بها على معالم مدينة الرياض ، ومدينة الرياض مدينة قائمة فى الصحراء . . . الصحراء اللافحة الشاسعة من كل نواحيها ، ويدهشك مع ذلك أن تراها مدينة حية ناشطة ، وأن ترى عمرانها يمتد من كل أطرافها ، ويظاهر لك مايفعله السلطان والمال ، وما جبل عليه الإنسان من قدرة على التعمير حين تحفزه الرغبة وتتهيأ أسباب العمران ، وتجد فى ذلك تفسيراً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق الأسماء حارث وهمام »

وبينا نحن فى جولتنا ، إذا بغلام لايكاد يعدو السابعة عشرة يقبل علينا ، ويلقى السلام كأنه يعرفنا ، فأقبلت عليه وقد انشرح له صدرى . . . وسألته من أنت ؟ فذكر اسمه ، فسألته هل تعرفنا ؟ قال : لا . من أنتم ؟ قلت له : هل تسمع بالإخوان المسلمين ؟ قال طبعا ! قلت فأين هم ؟ قال : فى مصر وفى كل مكان ! قلت : فهذا هو مرشدهم العام — وأشرت إلى فضيلته — وهذا الأستاذ صالح أبو رقيق ، وهذا الأستاذ أسامة الهضيبى من الإخوان . . . قال أهلا وسهلا ، لقد وجدت قلبى هكذا منجذبا إليكم دون أن أعرف السبب . . . قالها وعيناه تألقان ، ووجهه ينضح عاطفة ؛ ولقد والله خفق قلبى وأنا أسمعه وأنظر إليه . . . ثم تركنا وهو يلتفت إلينا ، كأن هذه اللحظات قد وصلتنا برباط قديم ، وهى كذلك ، فالأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف .

* * *

ترى لو أنك طفت أقطار أوربا وأمريكا ، أتظنك تستطيع فى غمرة حضارتها الصاخبة وعمرانها المارد أن تلتقى بمثل هذا الغلام ؟

أو يستطيع الحالمون بسعادة الإنسان أن يجدوها على الأرض بدون عاطفة رقيقة كعاطفة هذا الغلام ؟ !

* * *

أما أنت ياغلام الرياض فإن الشعاع الرائق الذى تألقت به عيناك لايزال يرف فى قلبى الجريح . وبه وبمثله من الوجوه العذبة المؤمنة ، فى كل مكان ، سنغلب بإذن الله كل صعب ، وسيشق النور طريقه بين الصخر والطين ! !

---

(١) فى رحلة إلى الرياض سعدت بها مع فضيلة المرشد العام للاخوان المسلمين .

بين الصورة والحقيقة

لسماحة الأستاذ السيد أبى الحسن الندوى (١)

وكيل ندوة العلماء بالهند

إنّ كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، يُميز بينهما بسهولة فى الحياة ، وتعامل الحقيقة بما لا تعامل به الصّورة . وأضرب لذلك مثلين : هذه مثُل للثمار مصنوعة من الخزف تترائى للناظر كأنها تفّاح ورمّان وعنب وموز وبرتقال فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزّينة أو المثال .

إننا نرى فى المتحف كل نوع من السِّباع والأنعام والطيور الجليلة والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد والذئاب ، والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامدة لا حراك بها ، وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزا .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى بما تأتى به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها ، فإذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة . فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج ما يكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة ، تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة : وإن الولد يقدر أن

---

(١) ننشر هذا المقال القيم لسماحة الأستاذ أبى الحسن الندوى وقد تأخر وصول الحلقة الثانية من سلسلة مقالات سماحته عن « مثنوى جلال الدين الرومى » ونأمل أن تصلنا فى وقت تدرك معه طبع العدد التالى بإذن الله .

يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة ؛ لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

إن هذا العالم الذى نعيش فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع . وقد خلق الله كل شىء على حقيقة ، فللمال حقيقة وحبه فطرى طبعى ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، وللأولاد حقيقة والحنان إليهم وحبهم فطرى ، ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم ، وكذلك للحاجات الطبعية والميول الفطرية حقيقة لا تجحد . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم . أما صورة الإسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل ؛ لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعا ليس لها سلطان وتأثير ، وإن صورة إسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة وتقهر شهواتنا وتثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهوِّن على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات والشهادة فى سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله واحتمال المكاره وتجرع المرائر فى سبيل الدين ، ها هى الآن عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا فى النوم طول الليل ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الإنسان وبين الكأس وهى على راحته فيمتنع من شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يقرب الحرام ، ها هى الآن قد أصبحت لا تملك أمراً ولا نهياً !

سرِّح طرفك فى تاريخ الإسلام وتجول فى فصوله وأوراقه يظهر لك أن كلمة الإسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بها كانت ذات

حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة ونطق فارغ ؛ ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الأمة ، ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على حياتنا ونرجو أن تؤتى هذه الكلمة أكلها كل حين وتحدث ما أحدثت فى الماضى ، حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا وقلنا : ألسنا مسلمين ؟ ألسنا نصلى ونصوم ؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباحاً ومساء ؟ فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟ ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟ وأين ثمرات شجرة الإيمان ، وأين نتائج الصلاة أو الصيام ، وأين ما وعد الله من النصر المبين والاستخلاف والتمكين ؟ !

لا تخدعنا أنفسنا ، ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة الدين : لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكان إيمانهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ؛ فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناءها ، إنما هو وهم وخيال وضرب من المحال .

أما قرأتم فى التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه رفعوه على الخشبة وتناولوه بالرماح والأسنة حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن فيقال له : أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك ؟ فيضطرب ويقول : والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشاكها فى قدمه !

يا أبناء الإسلام ! إن الذى ثبته فى هذا المكان وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة فى حب الرسول هل هى صورة الإسلام ؟ لا بل هى حقيقته التى مثلت بين عينيه الجنة والرماح تنوشه وتعيث بجسمه وناجته وقالت : صبراً ، يا خبيب ! فما هى إلا لحات وثوان ، وها هى الجنة تنتظرك ورحمة الله ترتقبك ؛ فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية وحقيقة الحب والإيمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة فى قدمه . فهل تستطيع الصورة أن

تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفانى والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟ كلا ! إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام بل حتى الخيالات والأوهام. وقد بدا لنا ذلك فى الاضطرابات الطائفية الماضية فى الهند ؛ فإن أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع وخشية الموت وما دار فى رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعار الكفر ؛ وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب رضى الله عنه فلما كان فى الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ! وهناك قامت المعركة بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الإسلام على ضدها وقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإنى قد جعلت لكم مالى[١] ، وهكذا انطلق صهيب بدينه متجرداً من ماله فرحا مسروراً كأنه لم يفقد شيئاً ولم يخسر شيئاً .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة فلما رآه رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير[٢] ، هناك اصطدمت حقيقة الإسلام بحب الزوج والولد فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله وهاجر وحيداً . هل الصورة تستطيع ذلك ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ، بل سمعنا أن أناساً قد ارتدوا عن دينهم للمال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان أبو طلحة مقبلا على صلاته فإذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا يجد الطريق

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١١٢ .

للخروج ويميل إليه قلب أبي طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق إلا حقيقة الإسلام ، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية .

لقد كان فى حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ خمس مائة ألف أو يزيد ، فإذا نصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت أن الأشقر برأ من توجمه وأنهم أضعفوا فى العدد(١).

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئناً ، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ؟ ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمناً بالله واثقاً بنصره ، ولأنه كان يعلم أنه على حقيقة ، وأن مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت لا تقدر أن تقاوم حقيقة الإسلام.

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ومنا من يعرف ما يقول ، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر . إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة ، فإذا قالوا : لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ولارب غيره ولارازق غيره ولا نافع ولا ضار إلا هو ، له الملك والحكم والخلق والأمر وبيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحب والخوف والسؤال والرجاء والعبادة والدعاء ، وأصبحوا عباداً حنفاء شجعان أقوياء لا يهابون العدو ولا يخافون الموت ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ونفكر هل هذه الحقيقة متغلغلة فى أحشائنا ومتسربة فى عروقنا وشرايييننا ، وهل غرس حياتنا يسق بهذا الماء ؟ إنا نخاف أن لا يكون الأمر كذلك ، وأن نصيب الصورة فى حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة ؛ وذلك موضع الضعف فى حياتنا وسر شقائنا ومصائبنا .

---

(١) الأشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى فى مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج ٧ س٩)

إننا جميعاً نؤمن أن الآخرة حق والجنة حق والنار حق والبعث بعد الموت حق، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان . وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، وقاتلهم حتى قتل ؛ لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها . فمن أيقن بقول كأنس بن النضر إني لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للأمير : إني قد تهيأت لأمري فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم ! تقرئه عني السلام وتقول : يارسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله وملاق رسول الله ومجتمع به في نعمة الله وأنه يكلمه ويحدثه ؟ فإذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذي يمنعه من استقبال الموت ، وما الذي يحول بينه وبين الشهادة ؟

إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة وذلك من عهد بعيد في التاريخ . والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الإسلامية كجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحش تظن أنه إنسان أو حارس فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي أوحيوان جريء فيجد أنه ليس بشيء ، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه وتتلف زرعه . قد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً ، فلم تجترئ عليهم أمم العالم ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققه ، ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد افتضح المسلمون وظهر إفلاسهم في الروح والقوة المعنوية . من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإن الصورة لا تقوم إلا على الجهل والغرور ، فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار تبين الصبح لذي عينين .

وإن ما نرى ونقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم

فى ميادين القتال إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ؛ وقد فضحتنا الصورة فى كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام . . ولكن الذنب علينا لأننا حملنا عبء الحقيقة على ظهر الصورة فلم تستطع حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا وكذبت أمانينا وخذلتنا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه ؛ وبذلك هان الإسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدرى الناس أن حقيقة الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ولم تنازل أمم العالم ، وأن الذى يبرز فى الميدان هو صورة الإسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الأوربية فى الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التى أرعبت أوربا كلها وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للإسلام وقد فقدت شيئاً كثيراً من حقيقة الإيمان ؛ ففشلت فى المقاومة ؛ وفقدت كثيراً من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح وقد أطفأت المادية الأوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله وحببت إليها الحياة واللذات ، ثم إنها تتخلف تخلفاً كبيراً فى المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ؛ فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ؛ فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغى أن نقتنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

إن وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا والنجاة والغفران فى الآخرة ، كل ذلك محصور فى حقيقة الإسلام وذلك قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتمُ الأعلونَ إن كنتم مؤمنين » لا شك أن الخطاب فى هذه الآية المسلمين ومع ذلك اشترط الإيمان للعزة فى الأرض والعلو والشوكة ، وقال فى موضع آخر : « إنا لننصرُ رُسلنَا والذين آمنوا فى الحياةِ الدُّنيا ويومَ يقُومُ الأشهادُ » وقال أيضاً : « وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكمُ وعملوا الصَّالحاتِ ليَستَخلِفَنَّهُم فى الأرض كما استَخلَفَ الذين من قبلِهم وليمكّننَّ لهمْ دِينهمُ الذى ارتضَى لهم وليُبَدِّلَنَّهمْ مِنْ بعد خوفِهمْ أمناً ، يعبُدوننى لا يُشْركون بى شيئاً ، ومنْ كفَر بعد ذلك فأولئك همُ الفاسِقُون » . ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة اشترط أن يكون فى المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية فى هذا العصر وأعظم خدمة وأجلها للأمة الإسلامية هى دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ؛ فلمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الإسلام فى جسم العالم الإسلامى ، ولا يدخروا فى ذلك وسعا ؛ فبذلك يتحول شأن هذه الأمة وفى نتيجته شأن العالم بأسره ، فإن شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبع لحقيقة الإسلام ؛ فإذا زالت حقيقة الإسلام من الأمة المسلمة فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ومن ينفخ فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « أنتم ملح الأرض فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » .

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح لأن السواد الأعظم للأمة مجرد عن الروح فارغ عن الحقيقة ، فكيف يعود الروح والحقيقة فى الحياة الإنسانية مرة أخرى ؟ !

إن فى هذا العالم أمما لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يبق فيها إلا عدة معتقدات مرسومة وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتها الدينية والروحية فلا يمكن لحركة أو شخصية مّا أن تنفث فيها الحياة

الدينية والروحية الحقيقية من جديد ، حتى أن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هذا العهد من الطبع والنشر والتأليف والإذاعة والتعليم والتربية وطرق الدعاية والتأثير ؛ وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية والخلقية والروحية .

أما الأمة الإسلامية فلا تزال — على علاتها وضعفها — مستمسكة استمساكاً مّا بعروة الدين وهى الإيمان بالله والرسول واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها ألبتة ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى ؛ بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزرى بإيمان كثير من خواص الأمم الأخرى وعليتهم ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة ، ثم إن كتابها لا يزال فى يدها لم يتناوله التحريف ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرة الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ؛ فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان والرجوع إلى الدين والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطاً من ظهور حقيقة الإسلام فى هذا العصر ، ولا نصدق أبداً بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام فلا أمل فى حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد . انظروا أيها المسلمون إلى ورائكم تروا جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة فى بحر التاريخ ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الإسلامى أو عصر من عصور التاريخ الإسلامى غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه فى الماضى السعيد ، وهبّت على قلوب الناس نفحات القرن الأول . وإن حقيقة الإسلام فى هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت فى جماعة تستطيع أن تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة ، وتأتى بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة والإيثار يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الإسلامى وأخبار القرن الأول ؟

من تاريخنا الحديث :

الشرق العربي

من حرب عالمية إلى أخرى

للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان الشام بكل أقسامه والعراق والحجاز وسائر جزيرة العرب يكوّن الجزء الأكبر من الدولة العثمانية فى الشرق الأوسط ، وكانت قد مضت على هذه العلاقة أربعة قرون — أما مصر فكان العدوان البريطانى قد فصلها عن الدولة منذ عام ١٨٨٢ — ومن الخطأ أن يُظن أن علاقة الدولة بتلك الأقطار العربية كانت علاقة استعمار . فالواقع أن الدولة العثمانية كانت دولة « اتحادية » لا تقوم على أساس العصبية الجنسية ، وإنما تقوم — إن صح التعبير — على العصبية الدينية . لم يكن طابعها الحقيق « تركيًّا » ولكن « عثمانيا » وفرق كبير بين الاثنين . . فهى كانت متنوعة الأجناس ، وكان الباب مفتوحا للعناصر غير التركية لتتولى كل الوظائف وتصل إلى أعلى مراتب الحكم . فكثير من ولاتها وقادتها وأمرائها وعلمائها كانوا بالفعل من عناصر عربية أو كردية أو مغربية أو بلقانية أو شركسية ، تجمعهم كلهم وحدة الدين والثقافة . أما فكرة العصبية التركية فنشأتها حديثة : إذ كانت ترجع إلى حكم رجال « جمعية الاتحاد والترقى » بعد خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ؛ وحين ظهرت هذه الفكرة أخذت الدولة فى الانهيار النهائى ؛ لأن الأساس الأول الذى تقوم عليه أخذ هؤلاء المتعصبون ينتزعونه من مكانه . ولم تلبث بعد ذلك إلا سنوات حتى قُضى عليها إلى الأبد فى ظروف الحرب العالمية التى كشفت التصدع الذى أحدث فيها ، وأوجدت الفرص للعناصر الثائرة لتنقض عليها .

فأقطار الشرق العربي — إذن — كانت مستقلة في حدود هذا الاتحاد : أي أنها كانت بريئة من الاستعمار ، خالية من التحكم والطغيان الأجنبي ، محتفظة بكرامتها ، شاعرة أنها آمنة على ثقافتها وسلامة تراثها الروحي ، مطمئنة إلى تحقق شخصياتها ؛ وهي إن خضعت لنظام كانت أولى مَن تعرف معائبه ومفاسده ، فهي كانت واثقة أنه يمثل استمرار تطورها التاريخي ، وفي وجوده إرضاء لوجدانها الديني ، وشعورها المشترك بوجوب التضامن لدفع العدوان الأوروبي . وقد أدى هذا النظام واجبه خير أداء في عصور سابقة ، وهي كانت لابد أن تعمل على إصلاحه بعد زمن قليل أو كثير .

كان هذا هو وضع الأقطار العربية — باستثناء مصر التي كانت أسرة محمد علي قد حاولت أن تستقل بها ذاتيا ولكنها لم تستطع الدفاع عنها بل أسلمتها للأعداء — حين نشبت الحرب العالمية الأولى : فهي ماعرفت الاحتلال الأجنبي إلا قبل ستمائة عام ، أي منذ عهد الحروب الصليبية ؛ وقد أمكنها حينئذٍ أن تُلقي بهؤلاء المتعصبين الدينيين إلى البحر ؛ وإلا في مناسبة الحملة الفرنسية الفاشلة التي قام بها نابليون فاستطاعت بعد قليل أن ترده وجيوشه مذءوما مدحورا . وما كان إيقاد نيران الحرب العالمية في ربوع الشرق من عمل هذه الأقطار ، وإنما كان الجناة المسئولون هم الأتراك رجال « جمعية الاتحاد والترقي » الذين زين لهم غرورهم ودفعهم حمقهم إلى الاشتراك في تلك الحرب — وما كانت إلا حربا أوربيـة ، فأوربية أمريكية مدارها النزاع على الامبراطوريات والاستئثار بالمنافع الاقتصادية والسياسية — فانحازوا إلى جانب ألمـانيا ، وأعلنوا الحرب في أكتوبر عام ١٩١٤ على إنجلترا والروسيا وفرنسا ، فبذلك قامروا بدولتهم وأنفسهم والأقطار المرتبطة بهم ، مقامرة انتهت بتحطيم دولتهم وذهاب ريحهم ، ثم كان أوخم عواقب وشر نتائج تلك المقامرة أنها أتاحت الفرصة للاستعمار — الاستعمار الأثيم المعتدي — ليثب على أقطار الشرق العربي الذي صدق عليه إذ ذاك قول الشاعر :

لم أكن من جُناتها — علم الله — وإني بحرِّها اليومَ صالي !

فيُفقد تلك الأقطار استقلالها وحريتها ، ويؤذي كرامتها ، ويستلب حقوقها وخيراتها ، ويحاول طمس شخصيتها ، ويهدد مستقبلها وحياتها ! !

وجدت البلاد العربية نفسها على إثر قرار « الاتحاديين » على غير إرادة منها

ودون ذنب جنت – مشتبكةً فى تلك الحرب الطاحنة . وقد أرسل الأتراك جيوشهم مع القواد الألمان إلى الشام ليهاجموا إنجلترا فى مصر ، وهبت هذه من جهتها تدافع عن القناة ومراكزها ، فأصبح البلدان الشقيقان ميدانى حرب لقوتين متعاديتين .
وكانت إنجلترا قد بادرت فمحت كل أثر لإرادة مصر ، ووضعتها تحت الحماية فى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ – منتهزة تلك الفرصة كعادتها لتحولها إلى مستعمرة تحكمها حكما مباشرا – وفرضت عليها الأحكام العرفية ، وجندت عمالها بالرغم منهم ، وانتهبت مواشى الفلاح ومحاصيل زراعته ، واغتصبت ثروة البلاد فى مقابل أوراق يصدرها البنك الخاضع لها ليس لها قيمة ، فأوجدت التضخم والغلاء ، وحجرت على كل الحريات واعتقلت الأحرار – وهذا كله سيؤدى إلى الانفجار ، فقيام الثورة المصرية المجيدة التى ستحدث فى عام ١٩١٩ والتى ستغير تاريخ البلاد منذ وقوعها .
كذلك حكم « جمال باشا » قائد جيش الأتراك الشام حكما عسكريا صارما ، وجند الرجال ، وزاد الضرائب ، وصادر الحريات ، ثم نصب المشانق وأعدم ونفى عدداً كبيراً من كرام الوطنيين ، وكان من أقسى ما عاناه أهل البلاد اختلال الحالة الاقتصادية : فاشتد الغلاء وتدهور النقد ، وتحولت الحالة إلى مجاعة حتى قدّر عدد من هلك من سكان لبنان بسبب المجاعة بنحو ثلث السكان . فكان قطر الشام كله فى حالة شقاء وبؤس طوال سنى الحرب لامثيل لها ! كذلك صار العراق ميدان حرب بين الجيوش التركية الألمانية تتقدم من بغداد والجيوش الإنكليزية من الخليج الفارسى إلى البصرة ، بين مد وجزر وكر وفر ، مما أدى إلى الحصار الاقتصادى واضطراب الأحوال المعيشية ، فاشترك العراق أيضا فى الآلام التى سببتها أحداث الحرب .

كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) إذن محنة كبرى بالنسبة إلى الشرق العربى . ولكن الآلام التى تحملتها أقطاره والإجراءات الصارمة التى حُكمت بها فى خلال سنى الحرب ، لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما كان يدبره له المستعمرون ، وما كان مقدرا له أن يلاقى عقب انتهاء الحرب من جراء ذاك التدبير . ومما كان من شأنه أن يجعل تلك التدبيرات حين تظهر أوقع ألما وأشد مضاضة أنها جاءت فى صورة خيانة – على ما سنفسره بعد قليل – وأن الاتفاقات التى تآمرت

الدول على إمضائها لم تكن إلا تنفيذاً لسياسة الاستعمار الرجعى الذى كان من مميزات القرن التاسع عشر ، والذى ظُنَّ أن التنور والتقدم الذى حدث فى القرن العشرين قد فَلَّ حدَّه وكسر شِرَّته ، وأنها لم تكن ترمى إلا إلى عدوان غاشم ، سيصطحب — كما ستتكشف الحوادث بعد حين — بأعمال الوحشية ومظاهر الهمجية وأساليب البربرية ، كما سيظهر من فرنسا فى سورية ولبنان ، ومن إنجلترا فى مصر والعراق وفلسطين ، ومعهم أصدقاؤهم اليهود من شذاذ الآفاق ، مما هو جدير كله بالحضارة الأوربية فى القرن العشرين . . . !

حدثت هذه المؤامرات فى الوقت الذى كانت تمد فيه تلك الدول يدها إلى الشرق العربى ترجو معونته وتطلب صداقته : ذلك أن إنجلترا ممثلةً لحليفاتها وقد وجدت نفسها فى أوائل الحرب فى مأزق ، وأحست بضعفها إزاء جيوش الأتراك ، وكانت تخشى إعلان الجهاد الدينى الذى كان الأتراك يحثون رؤساء البلاد العربية على إعلانه ، رأت أنها لا يمكن أن تتفادى هذه الأخطار إلا إذا صادقت العرب وعقدت حلفا مع زعمائهم . وكانت هنالك اتصالات بينها وبين الشريف « حسين » أمير مكة وولديه عبد الله وفيصل ، إذ أن الأمير لم يكن على علاقات حسنة مع « الاتحاديين » . فنى الخطابات العديدة التى تبودلت بين الشريف وبين « هنرى مكماهون » معتمد بريطانيا فى مصر — وذلك فى خلال سنة ١٩١٥ — أعربت إنجلترا عن قبولها للمطالب التى كان يعرضها الحسين ، وتعهدت بالعمل على تأييدها وتحقيقها ؛ وهى تتلخص فى استقلال العرب ووحدتهم . وذلك بإنشاء دولة عربية متحدة تشمل جزيرة العرب ، والشام بما فيه فلسطين ، والعراق . وينادى به ملكا عليها . ونتيجة لهذا الاتفاق خرج الشريف وأولاده على الدولة العلية وأعلنوا عليها الحرب (يونية عام ١٩١٦) وبعد أن كونوا جيشاً عربياً قوياً ظلوا إلى نهاية الحرب يساعدون إنجلترا وفرنسا فى جهودها الحربية لإنزال الهزيمة بالأتراك وإجلائهم عن الشام ، حتى تم ذلك . ولكن إنجلترا فى نفس الوقت الذى كانت تتفق فيه مع الشريف كانت تتفاوض مع فرنسا وروسيا ، وتوصلت إلى عقد معاهدة (مايو عام ١٩١٦) هى التى عُرفت باسم معاهدة « سيكس — بيكو » نسبة إلى ممثلى إنجلترا وفرنسا اللذين عقداها ، اتفقت

فيها الدول الثلاث على اقتطاع أجزاء من تركيا وعلى تقسيم أقطار الشرق العربى بينها . وذلك على هذا الوجه : أن تأخذ روسيا القسطنطينية ومناطق حولها وأراضى على الضفة القابلة فى آسيا ؛ وأن تُعطى فرنسا سورية ولبنان ، ثم ولاية الموصل شمال العراق أيضاً ؛ وأما إنجلترا فتأخذ الجزء الأكبر من فلسطين ، وبقية ولايات العراق إلى الجنوب ، وتجعل منطقة معينة حول القدس دولية . وأغرب شئ أن هذه المعاهدة احتُفظ بها سرية ، ولم تُطلع الدول عليها « الحسين » حليفهم ، فلم يصله نبأ عنها إلا بعد أن خرجت روسيا من الحرب عقب ثورتها ، ونشرت حكومتها بعض الوثائق السرية عام ١٩١٨.

وكان أخطر اتفاق عقدته بريطانيا فى أثناء الحرب ، من تلك الاتفاقات التى جاءت مناقضة كل المناقضة لتعهداتها للشريف الحسين والعرب ، هو اتفاقها مع الصهيونيين . فقد استطاع « وايزمان » مؤيداً بروتشيلد والرأسماليين فى أمريكا وإنجلترا أن يعقد اتفاقا مع لويد جورج رئيس وزارة إنجلترا وبلفور وزير خارجيته ، تعهدت فيها إنجلترا أن تبذل أقصى ما تستطيع لتحقيق أمل اليهود فى إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين ، وصدر بذلك تصريح « بلفور » الشهير فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ .

جاءت إنجلترا هكذا عقب الحرب بهذه الاتفاقات الثلاث التى يناقض بل يصفع بعضها بعضا ! وهذا هو مثال الشرف فى المعاملات الدولية . يضاف إلى ذلك أن زعماء الحلفاء كانوا لا يفتأون فى أوقات شدائد الحرب يرددون تصريحاتهم بأنهم إنما يحاربون من أجل تحقيق العدالة وضمان حريات الشعوب . وجمعت هذه التصريحات فى المبادئ الأربعة عشر المعروفة التى أعلنها الرئيس الأمريكى « ولسن » فى عام ١٩١٨ ، وكان من أهمها تقرير أن كل شعب ينبغى أن يعترف له بحق تقرير مصيره وأن العلاقات بين الدول يجب أن تقوم على التفاهم والتراضى لا على العنف والقوة . وقد كان لإعلان تلك المبادئ دوى وأثر كبير يفوق حد الوصف ، ولا سيما فى الشرق الأوسط ، إذ اعتقدت الشعوب صدقها فى ذلك الوقت ، وترقبوا بزوغ عهد جديد تتحقق فيه غايات العدالة والحرية ويسود السلام !

فما كادت الحرب تضع أوزارها بعقد الهدنة فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ حتى كانت مصر التى فُرضت عليها الحماية قسرا بالرغم من قوة حركتها الوطنية وبالرغم من انتشار

الثقافة فيها — كانت أول من تحرك للمطالبة بحق تقريرها لمصيرها . فى ١٣ نوفمبر توجه « سعد زغلول » مع زميلين له إلى « ونجت » المعتمد البريطانى وأبلغه مطلب مصر وهو الاستقلال التام . وفى نفس اليوم ألف سعد « الوفد المصرى » الذى كان مقدراً له أن يقود الحركة الوطنية فى ذلك الدور . ونشط أعضاؤه فى جمع التوكيلات من الأمة ، وطلب سعد الإذن له بالسفر ليرفع صوت مصر فى « مؤتمر الصلح » الذى كان سيعقد فى باريس . ولكن كل هذه المطالب رُفضت ، ورفضت إنجلترا أيضا بكل تعنت طلب رئيس الوزراء « حسين رشدى » أن يؤذن له بالسفر ، وكان مؤيداً للحركة الوطنية منذ بدايتها ، فاستقال . وانضم السلطان فؤاد الذى كانت الحماية قد عينته إلى جانب السلطة المستعمرة ؛ فاشتد الشعور بالسخط . وفى يوم ٨ مارس عام ١٩١٩ اعتقلت السلطة العسكرية سعداً ورفاقه ونفتهم إلى « مالطة » فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت مخزن البارود . وقامت الثورة المصرية إذن منذ يوم ٩ مارس ، واستمرت بعد ذلك فى عنفها وشدتها نحو عامين ، حتى اضطرت إنجلترا إلى إجابة بعض المطالب الرئيسية الوطنية .

« يتبع »

سنة للخلفاء

رأى على بن أبى طالب عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) وهو يعدو إلى ظاهر المدينة فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قد ندّ بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه .

فقال على : قد أتعبت الخلفاء من بعدك !!

رسالة مفتوحة إلى جلالة الملك سعود

« أذيعت هذه الرسالة فى القدس بمناسبة الزيارة الميمونة التى
سعدت بها الأردن من جلالة عاهل الجزيرة الملك سعود »

يا صاحب الجلالة :

لعلى لا أذيع سرا إذا قلت للناس ما سمعته من جلالتك قبل أسبوع فى قصر الناصرية العامر بالرياض ، من أن أهدافك التى عاهدت الله أن تبذل كل شىء لتحقيقها ثلاثة : عزة الإسلام ، وجمع شمل المسلمين ، واسترداد المغصوب من الأرض المقدسة فى فلسطين . وهى أهداف لا يختلف عليها مسلمان ، ومرتبط بجلالتكم فيها قلب كل مسلم مهما اختلف وطنه وداره ، وهى وحدها الأهداف التى يمكن أن تبعث هذه الأمة وتجمع شملها على أساس كريم ، وتمكنها من تحطيم أغلالها وحل قضاياها وفى رأسها قضية فلسطين . . .

ولعلى لا أذيع سرا كذلك إذا نقلت إلى الناس ما لمسته من غيرتك الكريمة فى كل حديثك ، غيرة تأثرت بها وجعلتنى أدعو الله ملحا أن يباركها ويجعل فيها الخير للإسلام والمسلمين .

وإن من حق جلالتك علىّ بعد الذى سمعت ، أن أنقل إليك خلجات نفوس الناس فى هذه الأرض المقدسة وفى غيرها من ديار الإسلام ؛ فإن التجارب الأليمة التى مروا بها جعلتهم فى قلق أليم من كل أوضاعهم ، وتردد شديد فى استقبال كل أمل جديد ، وحاجة ماسة إلى عمل من نوع جديد يرد إليهم إيمانهم بأنفسهم ، وثقتهم فى حكوماتهم ، ويعينهم على مواجهة الشدائد بعزم وثبات .

إن الحكومات التى تخلفت عن شعوبها فى الجولة الأولى الهازلة من معركة فلسطين ، والتى فجعتها فى كرامتها وحرماتها بفجيعة مدمدمة خلفت وراءها هذا الخزى والخراب ومئات الألوف من إخواننا الأعزة المشردين ، هى المسئولة عما تعانيه هذه الشعوب من القلق ، وما يهددها من الشك وفقدان الثقة ، ومما أصبحت تخشاه من سلطان الاستعمار عليها . وإن أخطر ما يهدد حكوماتنا أن تتجاهل ذلك فى شعوبها ، وأن تظن نفسها قادرة على تسييرها بالوعد البراق أو بالحديد والنار ؛ فإن الوعد البراق بقذف اليهود فى البحر كان بعده الهزيمة ، والحديد والنار لا يجمعان شملا ولا يدومان بحال

هذه الشعوب قد استيقظت ويقظتها يجب أن تطمئن إليها الحكومات المخلصة ؛ لأن الشعب الناهض لا يمكن إلا أن يكون عوناً لحكومته فى كل خير ، ولأن الحكومات لا تستطيع أن تفعل شيئاً بغير شعوبها . وإن من حق هذه اليقظة أن تُهيأ لها أسباب الرعاية ، ومن حق الشعوب — بعد الذى عانت — أن تقيس إخلاص حكوماتها بقدر ما تجد من تأييدها لكل حركة شعبية نظيفة ، أو على الأقل بتركها لتعمل وهى آمنة الظهر فى كل قطر من أقطار الإسلام . وإن تجوال جلالتكم الميمون فى هذه الأقطار وأركم المبارك فيها يجعلنى مطمئنا إلى أنكم تحيطون بتفصيل ماأعنيه بهذه الكلمات ، ويجعلنى واثقا أنه موضع تقديركم ورعايتكم فى كل ما تبذلون من جهد وتأييد لقضايا العروبة والإسلام .

يا صاحب الجلالة :

إن الأوضاع فى فلسطين قد وصلت إلى حد ينذر بخطر أكيد ، وإن استعدادات اليهود الدائمة واعتداءاتهم المتكررة يقابلها فى الجانب العربى رخاوة ألمية وضعف واضح على الحدود ، والحرس الوطنى على صورته الراهنة لا يستطيع أن يحقق الغاية منه ، وتزويده بما يلزمه وكفالة قوته وسلامته أمر لازم يجب المبادرة إليه . ثم إن حالة اللاجئين القاسية أصبحت تستدعى تنظيم المعونة الواجبة لهم ، على أن تتولاها أجهزة إسلامية نظيفة تعينهم على الدفاع عن كيانهم واسترداد المغصوب من أرضهم ، وإن أمل المسلمين فى جلالتكم أمل كبير ، وثقتهم فى نجدتكم تجعلهم يستبشرون خيرا فى تحقيق ذلك كله ، وفى مواجهة الأخطار المحدقة ببرنامج عملى سليم .

يا صاحب الجلالة :

وإن المؤتمر الإسلامى العام بالقدس ، وهو ثمرة غضه ليقظة الشعوب ، ومحاولة جادة أقامتها الحركة الإسلامية على أساس شعبي يلزم بالكتاب والسنة ، ويلتمس منهما النور الذى يبدد هذه الظلمات ، والروح الذى يحيى هذا الموات — يرحب بجلالتكم فى الأرض المقدسة ، ويدعو الله أن يوفقكم إلى كل ما فيه عزة الإسلام والمسلمين .

سعيد رمضان

الأمين العام للمؤتمر الإسلامى

نحو تطبيق الشريعة

للأستاذ محمد فتحى محمد عثمان

أذكر أن رئيس الدولة المصرية قد حضر مناقشة رسالة علمية فى أحد موضوعات الشريعة الإسلامية ، فعلّق عليها بما نحفظه عنه ونسجله عليه :

« إن لهذه الرسالة أهمية كبرى فى الشريعة الإسلامية الغرّاء التى قامت على أعدل الأسس وأصحها وأدقها وهى القرآن الكريم والسنة الشريفة . هذه الشريعة السامية التى تصلح لكل زمان ومكان وإذا كان الغرب قد طغى عليها ووضعها فى صورة الرجعية فهذا وهم وخطأ محض .

وإن القانون الفرنسى الذى استمدت منه الدول تشريعاتها ظلّ حتى سنة ١٩٢٧ لا يعرف نظرية العيب الخفى المعروفة فى الشريعة الأسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً ، كما أن القانون الفرنسى استمد معظم نصوصه من مذهب الإمام مالك . والشريعة الإسلامية هى أرقى القوانين ، وفيها المرونة التى تساير جميع الظروف .

وكلما أضاف أحد منا جديداً إلى ذخيرتنا من الشريعة الإسلامية ، ازدادت جلاء . إن هذه الشريعة التى تتهم ظلما بالرجعية قد حفظت حقوق المرأة . وكلما عنينا بتفصيلها وإيضاحها أضفنا أسانيد جديدة لمقاومة الأفكار القائلة بأن الشريعة الإسلامية يخشى تطبيقها »

* * *

وأذكر أنه قد وقع الاتهام الظالم للشريعة بالرجعية من أحد أساتذة القانون الجنائى بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، إذ قال بإحدى المجلات الأسبوعية :

« إن الرجوع إلى النظم الإسلامية بعد أن أدمجنا قوانيننا فى مجموعة القوانين التى يسير عليها المجتمع الدولى الحديث ، ينطوى على معنى الرجعية المناهض للتطور » .

ولست أدرى هل يقصد القائل أن يتهم الشريعة الإسلامية كلها بالرجعية ، أم أن يخص منها جانب التشريع الجنائى وحده ؟ ؟ .

لا أظن أحداً يقول بالأولى ، فقد اعترف حتى غير المسلمين بمكانة التشريع المدنى الإسلامى مثلا ، وأما الثانية فهى ظلم بيّن للشريعة التى يرتبط فيها التشريع الجنائى بغيره من جوانب التشريع : دستوريا كان أو اجتماعيا أو ماليا أو مدنيا ، ثم هو ظلم للقانون نفسه الذى لا يمكن أن يكون مقصوراً على ناحية دون ناحية .

والمرشد العام للإخوان المسلمين — بارك الله أقواله وأعماله — كان أستاذ الجيل فى تحديد حقوق الإنسان فى دولة الإسلام من مأكل وملبس ومسكن وعلاج ، وفى بيان ارتباط جوانب التشريع الإسلامى بعضها ببعض ، وعلاقة الحدود الشرعية بكفالة الحقوق المادية والأدبية ، ولقد ردد هذه المعانى فى أحاديثه المختلفة التى نشرت فى الصحف اليومية والأسبوعية ، وعلقت عليها جريدة الأهرام مرة فى حديثها الرئيسى ، ومرة فى التعليقات التى تنشر تحت عنوان « ما قلّ ودلّ » .

والدولة الإسلامية تساير فى فقهها الاجتماعى أرقى ما وصلت إليه الاتجاهات الدستورية والدولية ؛ إذ تقول هذه الاتجاهات بأن مهمة الوثائق الدستورية والدولية ليست مجرد تقرير حقوق الإنسان ، بل لابد من أن تتجه اتجاها إيجابيا فتنص على التزام الدولة بكفالة هذه الحقوق وتمكين الفرد من مزاولتها والتمتع بها ، حتى لا تكون فلسفات نظرية لا تصاحبها إمكانيات عملية أو قوة تنفيذية .

يقول الأستاذ المودودى فى رسالته « نظرية الإسلام السياسية » تحت عنوان « غاية الدولة الإسلامية » :

(للدولة الإسلامية القائمة على أساس هذا الدستور غاية ذكرها الله تعالى فى كتابه فى مواضع عديدة منها قوله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ؛ فالمراد من الحديد فى الآية هو القوة السياسية . والآية قد بينت ما تُبعث الرسل لأجله ، وهو أن الله قد أراد ببعثهم أن يقيم فى العالم نظام العدالة الاجتماعية ، على أساس ما أنزله عليهم من البينات ، وما أنعم عليهم فى كتابه من الميزان : أى نظام الحياة الإنسانية العادل . وقال فى موضع آخر : « الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فمن تدبر هذه الآيات

اتضح له أن الدولة التى يريدها القرآن ليست لها غاية سلبية فقط ، بل لها غاية إيجابية أيضاً : أى ليس من مقاصدها المنع من عدوان الناس بعضهم على بعض وحفظ حرية الناس والدفاع عن الدولة فحسب ، بل الحق أن هدفها الأسمى هو نظام العدالة الاجتماعية الصالح الذى جاء به كتاب الله) اهـ .

وهذه المسئولية التى يحملها الإسلام للدولة تتضح فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم قول الله : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه)[1] .

وقد يبدو للبعض أن هذا تفسير تقدمى من أقلام دعاة الإسلام فى القرن العشرين ، بعد أن تأثروا بالنزعة الاشتراكية المعاصرة . ولو رجعنا إلى أقوال إمام جليل من أئمة القرن الخامس الهجرى ، وهو أبو محمد على بن حزم ، لوجدناه يقرر صراحة مسئولية الدولة إزاء التعليم ، وإزاء مستوى المعيشة .

يقول بالنسبة للتعليم « إن كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو أنثى حر أو عبد ، يلزمه الطهارة والصلاة والصيام فرضاً بلا خلاف من أحد من المسلمين ، وتلزم الطهارة والصلاة المرضى والأصحاء ، ففرض على كل من ذكرنا أن يعرف فرائض صلاته وصيامه وطهارته وكيف يؤدى ذلك . وكذلك يلزم كل من ذكرنا أن يعرف ما يحل له ويحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأقوال والأعمال . فهذا كله لا يسع جهله أحد من الناس : ذكورهم وإناثهم ، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم . وفرض عليهم أن يأخذوا فى تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم وهم مسلمون ، أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم ، ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتب أقواما لتعليم الجهال » .

---

(١) رواه بألفاظ مختلفة أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه ، وصححه السيوطى فى جامعه الصغير ، واللفظ للبخارى .

ثم يزيد على ذلك ما يناسب كل طائفة من ألوان العلم والثقافة فيقول : « ثم فرض على كل ذى مال تعلم حكم ما يلزمه من الزكاة ، وسواء الرجال والنساء والعبيد والأحرار ، فمن لم يكن له مال أصلا فليس تعلم أحكام الزكاة عليه فرضا .

ثم من لزمه فرض الحج ففرض عليه تعلم أعمال الحج والعمرة ، ولا يلزم ذلك من لا صحة لجسمه ولا مال له .

ثم فرض على قواد العساكر معرفة السير وأحكام الجهاد وقسم الغنائم والفيء .

ثم فرض على الأمراء والقضاة تعلم الأحكام والأقضية والحدود ، وليس تعلم ذلك فرضا على غيرهم .

ثم فرض على التجار وكل من يبيع غلته معرفة أحكام البيوع وما يحل فيها وما يحرم، وليس ذلك فرضا على من لا يبيع ولا يشترى .

ثم فرض على كل جماعة مجتمعة فى قرية أو مدينة أو دسكرة — وهى المجشرة عندنا — أو حلة أعراب أو حصن أن يندب منهم لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها[1] » اه .

وتأمل معى فى هذا النص الجامع :

١ — تحديد مسئولية الدولة بوضوح إزاء التعليم . وهذا ما نحن بسبيل بيانه والتدليل عليه .

٢ — العناية بتحديد حد أدنى للمستوى الثقافى العام ، يتمثل فى قدر معين يلزم علمه للجميع ، وقدر معين آخر يلائم كل طائفة .

٣ — النص على تعليم المرأة نصاً صريحاً قاطعا . وقد قال ابن حزم فى موضع آخر « . . . النفار للتفقه فى الدين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على النساء كوجوبه على الرجال . وفرض على كل امرأة التفقه فى كل ما يخصها كما ذلك فرض على الرجال . ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم ، وما يحل وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك كالرجال ولا فرق . ولو تفقهت امرأة فى علوم الديانة ،

(١) الإحكام فى أصول الأحكام جـ ٥ ص ١٢١ — ١٢٢

للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك . فهؤلاء أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك[1] » .

٤ — تربية وعى قانونى سليم فى الأمة بتعليم أحكام الشريعة ، حتى تعرف الرعية الأحكام التى يتعاملون بها فيما بينهم ، وتحاسبهم على التزامها وتلزمهم بها حكومتهم .

فإذا أضيف إلى هذا التعليم الإلزامى ، الذى هو فرض عين ، ضروب التعليم الأخرى التى هى من فروض الكفاية كالطب والهندسة والكيمياء والطيران وغير ذلك ، تبين أى مستوى راق يكفله الإسلام فى المجتمع الإسلامى .

هذا عن المستوى الثقافى ، أما المستوى المعاشى فللإمام ابن حزم كلمته الذائعة التى تقرر حق الفقير وتحدد مسئولية الدولة : « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا فىء سائر المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة[2] » وفى هذا النص تقرير لمسئولية الدولة صريح .

ولقد جعل ابن حزم من المسألة المعاشية قضية شعبية يعلن من أجلها الكفاح ، وذلك حيث يقول : (ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير ، وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ؛ لأن فرضا على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير . وله أن يقاتل عن ذلك ؛ فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقا ، وهو طائفة باغية . قال تعالى : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانع الزكاة[3]) اهـ .

---

(١) الإحكام جـ ٣ ص ٨١ — ٨٢ . (٢) المحلى . جـ ٦ ص ١٥٦

(٣) المحلى جـ ٦ ص ١٥٩

هذه نصوص تقطع بأن مسئولية الدولة عن حقوق المواطنين ، مقررة عند علماء المسلمين من قديم ، وليست من قدح الأذهان عند الداعين إلى الإسلام فى القرن العشرين . فهل يعد مثل هذا التشريع تقدميا أم رجعيا ؟ ؟

وليس من شك أن هذا التشريع الاجتماعى الذى يحفظ للأفراد مستوى معاشيا وثقافيًّا كريما ، يتضافر مع التشريع الجنائى على مكافحة الجريمة ، حتى يضيق المجال أمام الإجرام ، وتغدو الحدود الشرعية « عقوبات تهديدية تبين للناس فداحة الجرم إن هم أقدموا عليه ، وعادلة لأنها لا تطبق إلا فى مجتمع إسلامى متكامل توفرت فيه دعائم التربية السليمة ، وأسباب الاستقرار الاجتماعى المادية والأدبية[1] » .

أضف إلى ذلك أن تشريع الأحوال الشخصية سيكون له نصيب فى مكافحة جريمة كالزنا ، والتشريع المدنى سيكون له أثره فى مكافحة جريمة كالسرقة ، والتشريع الدستورى سيكفل قيام الحكومة الشرعية التى ستقوم على تطبيق التشريع الاجتماعى ، وسيكفل حق الأمة فى تولية الحاكم الصالح ومحاسبته وعزله ، وحق الأمة فى الشورى والاشتراك فى تدبير أمورها .

فإذا كان التشريع الجنائى وحده هو الذى يوسم بالرجعية ، فينبغى أن ينظر إليه فى هذه الأضواء ، متضافراً مع غيره من التشريعات ومع التربية على أساس العقيدة والأخلاق . وإن كان التشريع الإسلامى كله هو المقصود ، فما أظلم الاتهام ! ! !

لقد حقق الإسلام أمنية يهفو إليها علم النفس الحديث . يقول فرنسيس إيفلنج « إذا كانت غايتنا هى مصلحة المجتمع وجب أن يكون الغرض من العقاب هو الوقاية ، وأى وسيلة تحقق هذا الغرض يجب أن تعتبر صالحة من الوجهة الاجتماعية . فإذا كان فى إمكاننا أن نستبعد أسباب الإجرام وظروفه ، سواء أكانت هذه الأسباب ترجع إلى البيئة ، أو إلى الشخص نفسه ، لكانت هذه هى الوسيلة المثالية التى يجب أن نتخذها[2] » .

---

(١) المرشد العام — دستورنا

(٢) علم النفس قديماً وحديثا — ترجمة عماد الدين إسماعيل وعطية هنا ص ١٦٩ .

من مذكرات وايزمان :

بريطانيا واليهود

كان الجهاد فى سبيل الحصول على وعد قاطع لاسترداد فلسطين لليهود جهاداً عنيفاً وجهاداً غريباً فى بابه لا يعرف له مثيل فى التاريخ . فاليهود أمة حرمت وطنها منذ أكثر من ١٨٠٠ سنة . وقد تصدرت بريطانيا العظمى حركة إرجاع هذا الوطن لأصحابه ؛ وأظهرت بعض الدول الأخرى عطفاً على تلك الحركة . ولـكن . . قامت من بين اليهود فئة كبيرة من أوسع اليهود نفوذاً عالياً ، وأكثرهم مالاً يحاربون الفـكرة ؛ لأنهم يعتقدون بأن اليهودى هو مواطن حيث عاش : فهو ألمانى فى ألمانيا ، وأمريكى فى أمريكا وهلم جرا . وخلال ستة الأشهر التى سبقت إعلان وعد بلفور اشتد الجهاد بيننا وبين أولئك اليهود اشتداداً عنيفاً قاسياً بالغ الحدة . ذلك لأنهم كانوا يحاولون مستميتين أن يمنعوا بريطانيا من قطع مثل هـذا الوعد . فلما فشلوا حاولوا على الأقل أن يخففوا منه وأن يضيقوا من حدوده . وكان حملة فـكرة أن اليهودى مواطن حيث كان من اليهود قد شعروا فى ربيع عام ١٩١٧ أن دعاة الصهيونية قد قويت كلمتهم واشتهرت دعوتهم ، فعزموا على العمل ، وعلى العمل السريع ، وكان معظم حملة فـكرة محاربة الصهيونية من يهود بريطانيا . فى ٢٠ مايو من عام ١٩١٧ دعا يهود بريطانيا إلى اجتماع عام خطبت فيه أنا فقلت بين ما قلت :

(أقرأ فى الصحف اليهودية ، وغير اليهودية ، أن الصهيونيين يريدون إقامة دولة يهودية فى فلسطين فى الحال ، وقد ذهب يهود أمريكا إلى حد تعيين نوع تلك الدولة فقالوا إنها ستكون جمهورية . أما أنا فأقول إن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين فى الحال ، هو خطأ سياسى كبير لأن الدول تبنى بالتدريج ولا تبنى دفعة واحدة .

ويوجد من الناس ، ومن اليهود ، من يزعم أن ذهاب روسيا القيصرية سوف

يقضى على حركة الصهيونيين لأنه لم يبق لليهود حجة لهجرتهم من روسيا إلى فلسطين أو إلى غيرها ، بعد تحرر روسيا من اضطهادات الحكم القيصرى .

أما أنا فأقول لكم إنه ليس أسخف من هذا الرأى ، لأن الصهيونية والمطالبة بالوطن القومى لم تنبعثا من اضطهاد اليهود ، وإنما هما وليدتا وطنية اليهود ، وحاجتهم إلى وطن واحد يجتمعون فيه بعد التشتت ؛ وهذا الوطن هو فلسطين : وطنهم التاريخى.

إنه من العار أن يتحارب الإخوان حول مطالبتنا بوطن هو وطننا . أقول هذا ثم أحذركم — أنتم يا خصوم الصهيونية بين اليهود — وأقول لكم ارفعوا أيديكم واحذروا العمل ضدنا) .

ولكن كل هذا لم يؤثر فى أغنياء اليهود وأصحاب النفوذ من يهود بريطانيا ، فنشر دافيد ألكسندر رئيس مجلس يهود بريطانيا ، وكلود مونتفيورى رئيس الجمعية اليهودية الإنكليزية ، بياناً فى جريدة (التايمس) هاجما فيه الصهيونية أشد هجوم ، وحذرا فيه حكومة بلفور من الإقدام على عمل من الأعمال التى يسعى الصهيونيون إلى تحقيقها على يد . . . بريطانيا . . .

كان اليهود أصحاب النفوذ يطالبون بأن يعيش اليهود فى سلام مع العرب فى فلسطين ، وكانوا يقولون إن اليهودية دين لا قومية .

إلا أن رؤساء الدين اليهودى فى بريطانيا ، و فى إسبانيا ، و فى البرتغال ، نشروا بياناً فى (التايمس) عارضوا فيه الفكرة ، وأعلنوا أن اليهودية دين وقومية ، وهنا تفضلت (التايمس) فنشرت مقالاً رئيسياً قالت فيه :

« ليس هناك ما يدعو إلى مثل هذه الخصومة بين اليهود . . . إن العالم المسيحى لن ينقلب ضد اليهود المقيمين فيه إن هم قالوا إن يهوديتهم هى دين وهى قومية ... »

* * *

وننشر فيما يلى ترجمة نص وثيقة هامة وصورتها الزنكوغرافية . وهى عبارة عن

قصاصة من جريدة التيمس تاريخها أول أكتوبر ١٩٣٧ ، وهى تفضح أطماع بريطانيا ونظرتها إلى العلاقة بينها والولايات المتحدة من جهة ، وفلسطين واليهود من جهة أخرى على أساس من نصوص التوراة ! !

والنص منشور بين صورة أللنبي قائد معركة مجدّو الفاصلة فى فلسطين فى الحرب العالمية الأولى وصورة لورنس رجل الإنجليز فى الجزيرة العربية :

السيادة فى فلسطين

هل ملكية أرض الميعاد تختص بها بريطانيا بحق ؟

إن الإجابة على هذا السؤال الجوهرى تتوقف على تفهم العوامل التالية :

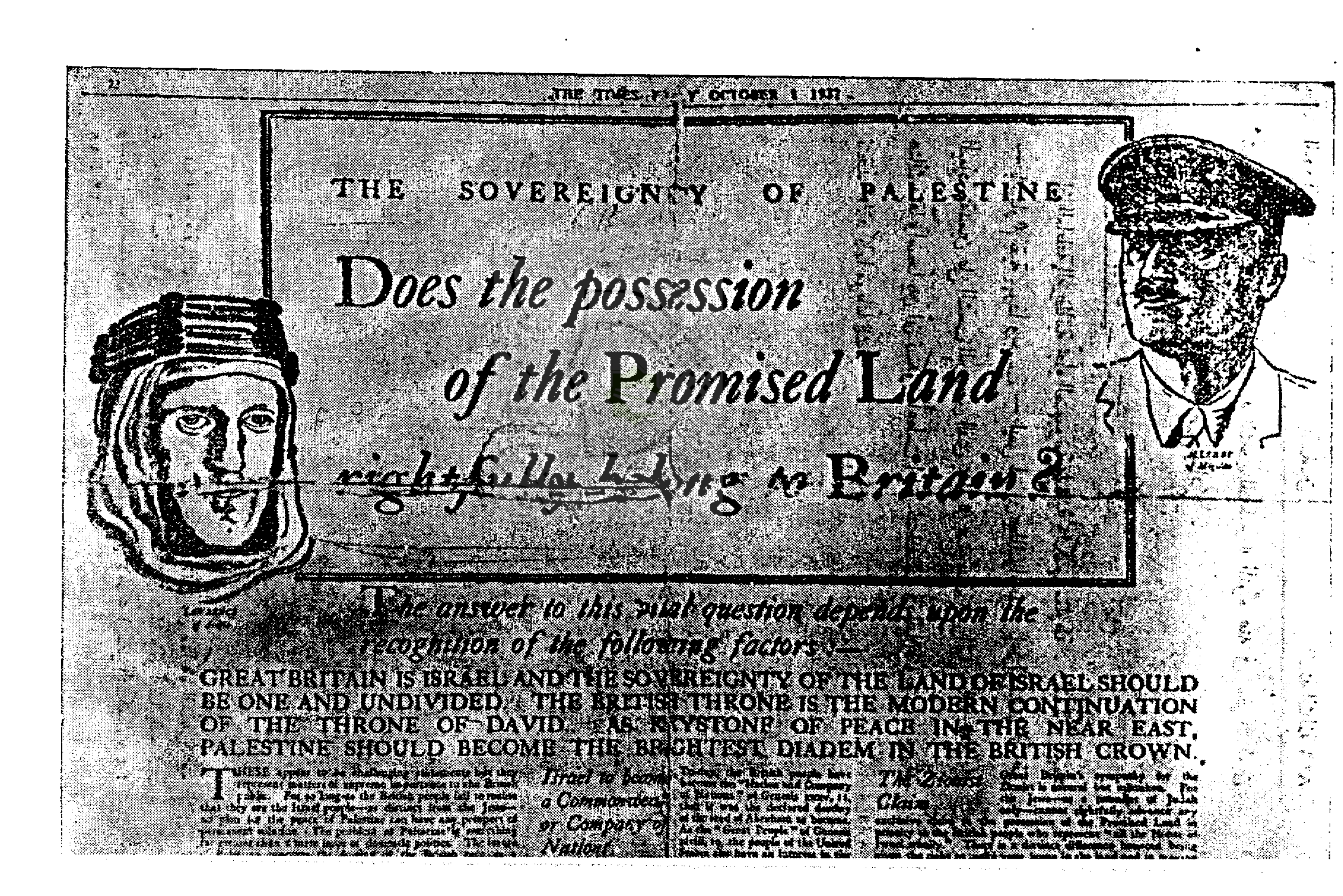
[إن بريطانيا العظمى هى إسرائيل ، والسيادة على أرض إسرائيل لا بد أن تكون وحدة لا تتجزأ . إن العرش البريطانى هو الامتداد الحديث لعرش داود ؛ وفلسطين ، لأنها حجر الزاوية فى أمن الشرق الأدنى ، يجب أن تصبح ألمع درة فى التاج البريطانى] .

هذه العبارات تبدو متحدية ، ولكنها تبين مسائل ذوات أهمية كبرى للشعب البريطانى . ذلك لأنه ما دام البريطانيون يقصرون دون التحقق أنهم هم الشعب الإسرائيلى — متميزاً عن اليهود — فإن أية خطة للسلام فى فلسطين لن تتضمن أملا لحل دائم . إن مشكلة فلسطين أعظم كثيراً من أن تكون مجرد نزاع فى السياسة المحلية ؛ فإن مستقبل فلسطين متصل بمصير الأمة البريطانية على وجه العموم .

إسرائيل تصبح « كومونولثاً » أو جماعة أمم :

لقد أصبح الشعب البريطانى اليوم « أمة وجماعة أمم » الواردة فى سفر التكوين ٣٥ : ١١ أى أنها كانت الغيب الذى أعلن عن مآل نسل إبراهيم(١) . وكذلك فإن

(١) ورد فى التوراة : « وقال له الله اسمك يعقوب . لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون إسرائيل . فدعا اسمه إسرائيل . وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها : ولنسلك من بعدك أعطى الأرض » (سفر التكوين ٣٥ : ١٠ — ١٢) .



THE SOVEREIGNTY OF PALESTINE

Does the possession of the Promised Land rightfully belong to Britain?

The answer to this vital question depends upon the recognition of the following factors:—

GREAT BRITAIN IS ISRAEL AND THE SOVEREIGNTY OF THE LAND OF ISRAEL SHOULD BE ONE AND UNDIVIDED. THE BRITISH THRONE IS THE MODERN CONTINUATION OF THE THRONE OF DAVID. AS KEYSTONE OF PEACE IN THE NEAR EAST, PALESTINE SHOULD BECOME THE BRIGHTEST DIADEM IN THE BRITISH CROWN.

Israel to become a Commonwealth or Company of Nations

The Zionist Claim

شعب الولايات المتحدة باعتباره « الشعب الكبير » المنوّه عنه فى سفر التكوين ٤٨ : ١٩ له أيضاً اهتمام بمستقبل أرض الميعاد[1] .

الادعاء الصهيونى :

إن العاطفة البريطانية تجاه الصهيونية طبيعية ولكنها مغلوطة . ذلك لأن اليهود — باعتبارهم بقية يهوذا وحسب — ليس لهم أن يطالبوا محقين بإحراز شامل لأرض الميعاد متقدمين على الشعب البريطانى الذى يمثل « جميع بيت إسرائيل كافة » . إن هناك فرقاً واضحاً بين أن تكون أعطيت الحق لتتخذ لك فى البلاد وطناً ، وبين أن تتخذ البلاد كلها موطناً لك .



(١) وجاء فى التوراة : « وقال يوسف لأبيه ليس هكذا يا أبى لأن هذا هو البكر . ضع يمينك على رأسه . فأبى أبوه وقال علمت يابنى علمت هو أيضاً يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهوراً من الأمم » (سفر التكوين ٤٨ : ١٨ ، ١٩) .

سَبَحاتُ فِكْرٍ

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر بالباكستان

النظام والإتقان

أزمعنا سفراً طويلا ، وعزمنا على التبكير به . ولم يكن السفر فُجاءة فقد روّينا فيه وتأهبنا له . ولكن أخّرنا الإهمال والإمهال حتى خرجنا والساعة أربع نهاراً (قبل الظهر بأقل من ساعتين) وإنما أخرنا التهاونُ والاستخفاف بالمواقيت بل إعواز النظام . والنظام قوام الأعمال كلها :

هو فى الزمان إحكامُ المواعيد والمحافظةُ عليها ، وتأدية كلّ عمل فى حينه . وحينُ كل عمل موقوت بأسبابه ودواعيه . وتأخيرُ العمل عن حينه تضييع للفرصة ، وإخلال بالمُدّة ، ووضع للأمر فى غير موضعه ، وأن تُضَيِّع وقته لتزحم به وقتاً أعدّ لغيره ولم يهيَّأ له .

والنظام فى المكان وضع كل شىء فى موضعه وإحلاله محله المهيأ له والذى ييسر وجدانه والانتفاع به .

والنظام فى الفكر أن تتسلسل المقدمات على ترتيب حتى تُفضىَ إلى نتائجها .

والنظامُ فى النفس أن تسير على قوانين لا تَحار ولا تتردّد .

والنظام فى الجماعة ائتلاف أفرادها على قانون جامع ، وتعاوُنهم على أمر مقدور لتعمل متعاونة غير متخاذلة ومتآلفة غير متصادمة .

وكذلك النظام فى الخليقة كلها . أحسب النظام — وإن شئت فسمه الوئام والوفاق والحب والسلام — قوام كل الأمر فى الخليقة وفى نفس الوحدات والجماعات والأمم ، وفى أقوالها وأفعالها وسياساتها .

تأمل تجد الأدلة قائمة ، والحوادث فى الأنفس والآفاق شاهدة .

* * *

بُعد الحضر عن الطبيعة

خرجنا من المدينة المنورة قبيل العصر نؤمّ جدة ، فأدركنا موضعاً اسمه البستان وقد مضى من الليل قرابة أربع ساعات فآثرنا المبيت ؛ فنزلنا ومهدنا فرشنا تحت السماء الصافية المُصحية ، نرى النجوم شارقة وغاربة ، ومطلة على الجبال وكانسة وراءها ، وباتت الكواكب والبروج فى جمالها وجلالها تسامرنا . وذهب التأمل مذاهبه فى صورها ومعانيها .

ونمنا على نية المسير بغلَس . وقمت قبيل الفجر فإذا أحد الرفاق يوقظ الركب صائحاً : قوموا لقد غاب القمر ، وأوشكت الشمس أن تطلع . وجعل يكرر هذا القول ويؤكده حسبانا أن غروب القمر يعقبه طلوع الشمس . فضحكت وقلت : يا هذا إن القمر يغرب بالليل والنهار ، ويغيب قبل طلوع الشمس وبعد طلوعها . ثم قلت لنفسى : لقد قطع الحضر الناس عن الطبيعة وحجبهم عن السماء ؛ فقلّ من يعرف من أهل المدن أسماء النجوم والبروج وسيرها فى أفلاكها واختلاف مواضعها باختلاف أيام السنة وساعات الليل . ولكن أهل البادية يعرفون هذا كله ويهتدون به سائرين ، ويوقتون به مقيمين .

سألت بدوياً فى الحجاز عن نجم فقال هو الجوزاء . وأشار إلى آخر قريب منه وقال : هذا المِرزَم ، ثم أشار إلى الأفق الجنوبى وقال : وهذا سُهَيل ، وأخذ يحدث عن سهيل وأوقات طلوعه وصلته بالجو وأثره فى الإبل .

ينبغى ألا تقطع الحضارة الناس عن الطبيعة فى سمائها وأرضها ، وعن الطبيعة فى أجسادهم وأنفسهم ؛ ففى البعد عنها ضعف الأنفس والأجسام وضيق الأخيلة والأفهام.

* * *

الكلمة الطيبة والعمل الصالح

دار حديث فى تبدل الأحوال وسرعة تغيرها : العالم فى تغير مستمر ، والأمم فى تحول مطّرد ، والإنسان لا يلبث على حال ، ليس لشىء ثبات ولا لأمر بقاء .

منع البقاءَ تقلّبُ الشمسِ … وطلوعها من حيث لا تُمسى

قلت أجل ؛ ولكن أمراً واحداً لا يحول ولا يزول ، هو الحق ؛ الحق الذى يسير قوانين هذا العالم المتغير ، ويفنى فى بقائه كل شىء ، وتحول على ثباته كل حال ، فلا تخدعنكم الصور الحائلة الزائلة ، فإن وراءها حقائق دائمة عمادها الحق الباقى الذى لا يزول .

ومن هذا الحق الكلمة الطيبة تتداولها الأجيال بعد الأجيال ، مزهرة مثمرة مظلّة ، والعمل الصالح تسير على سنته القرون بعد القرون وهو طريق بيّن لاحب مضىء ، يهتدى عليه الناس ويأنسون به ، ويركنون إليه ، ويبلغون به المقاصد .

من ديوان : « مع الله »

الجزاء الأوفى

غَمَرَتْنِي نَعْمَــاؤُهُ وَتَبَدَّتْ   لِضَمِيرِي فِي سِرِّ أُنْسِي وَبُؤْسِي
وَتَجَلَّتْ آلَاؤُهُ فِي حَيَاتِي   وَاطْمَأَنَّتْ فِي غَوْرِ عَقْلِي وَحِسِّي
أَتَلَقَّى سَرَّاءَهُ فِي صَبَاحِي   وَأُوَقَّى ضَرَّاءَهُ حِينَ أُمْسِي
وَأَرَانِي أَسْمُو بِسَعْيِي وَوَعْيِي   عَنْ جَزَاءٍ مِنْ مَعْدِنِ الأَرْضِ بَخْسِ
حَسْبُ نَفْسِي مِنَ الجَزَاءِ شُعُورِي   أَنَّنِي فِي الإِلٰهِ أَبْذُلُ نَفْسِي !

« عمر بهاء الدين الأميرى »

برنامجنا الاقتصادى

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة بباكستان

(٣)

منشأ الفائدة :

لقد التوت بنا وظائف النقد ، أو إن شئت التوينا نحن بها ؛ فالنقد يمثل قوة شرائية ، وليس مطلوبا لذاته ، لأنه لا يفيد الإنسان فى قليل ولا كثير إذا أعفيناه من صفته النقدية (يلاحظ أن المعدنين الذهب والفضة لن يكونا ذوى قيمة تذكر إن لم يستعملا كنقود ، إذ أن استعمالها فى الصناعة محدود ، ولن يكون عليهما طلب من الشدة بحيث تصبح قيمتهما كما نتصورها الآن) . ويكفى أن تفكر قليلا فى منفعة تلك القطعة الورقية من ذات العشرة الجنيهات وكم تدفع فيها إذا علمت أنها لن تساعدك فى استبدال سلعك ولن تكون لها قوة شرائية ؟ .

هذه الورقة النقدية لا يمكن أن تعتبر فى حد ذاتها سلعة ، ومع كل هذا أضفينا عليها صفات (الإنتاجية) فهى بمثابة رأس مالٍ منتج مضمون الغلة ، وهذا الوصف خيال فى عالم الحقيقة ؛ لأن رؤوس الأموال المنتجة لا يمكن أن تضمن غلتها إذ هى معرضة للربح والخسارة ، بل معرضة للفناء والامحاء ، ويكفى أن تُخترع آلة جديدة أعظم كفاية من الآلة القديمة (والآلة رأس مال منتج) حتى تصبح الآلة الأولى تافهة القيمة عديمة الجدوى حتى لاتكاد تجد من يشتريها . أما النقود فهى لاتبلى ولا تمّحى ولا تدرس ، ولا يعتورها أى نقص . وعلاوة على ذلك فقد ضمن صاحبها دخلا ثابتا يأتيه رغدا آخر كل عام هو ما يسمى « بالفائدة » يحصل عليه وهو مستريح فى داره لا يتكلف عناء أو مشقة .

لقد نبه الإسلام الحنيف إلى هذا الوضع وأبى إلاّ أن يعامل النقد كوكيل لا يتمتع بأكثر مما يتمتع به موكله ، فهو خاضع لسنة التناقص وقانون الفناء ، وهو

لا يزيد بنفسه ولا ينفع صاحبه لمجرد امتلاكه . والحق أن الذين يبررون ربا المال لا يتفقون قط على سبب التبرير . فآناً يرجعون ذلك إلى حرمان صاحب المال من ماله فترة من الزمن . ولست أدرى من الذى حرمه من ماله ، فنحن لا نعرف قط رجلا أخذ منه ماله قسرا وأعطى نظير ذلك دخلا ثابتا فوق ماله الأصلى . إن الذى يقرض بفائدة يتخلى عن ماله لآخر نظير جعل ثابت لا مبرر له . وقد يقال إن الحرمان متضمن فى كثير من الأحيان ؛ بمعنى أن من الناس من يريد أن يدخر فى حاضره لينتفع بالمال فى مستقبله ، ولست أدرى أين المبرر هنا ، إذ أ كثر ما يقال أن نجد وسيلة لأمثال هؤلاء تحفظ لهم ما يدخرون من حيث الكم والكيف ، أما أن نعطيهم أ كثر مما ادّخروا فذلك غبن ظاهر وتعليل عليل .

ويقول آخرون إن الفائدة ثمن الخطر الذى يتحمله المقرض ، وهذا وجه آخر للتدليل الأول ، إذ ليس ثمة موجب يلزم المقرض بتحمل الخطر ، ولو شاء أن يحتفظ بماله دون خطر فلن يجبره أحد بالمخاطرة ، ثم كيف تكون المخاطرة حين يسلم الفرد ماله إلى الدولة فى شكل إقراض نظير سند حكومى ؟ إن الحكومة أضمن من الفرد ، وليس هناك وجه للمخاطرة قط . وبجانب هذا تسمع نغمة عجيبة لتبرير الفائدة إذ يقول البعض إنها السبيل الطبيعى لإغراء الناس بالادخار ، وعن طريق الادخار يتكون رأس المال ، ورأس المال يزيد الاستثمار والإنتاج ، وهذه الزيادة ليست إلا سنة لازبة من سنن التطور البشرى . وهذا قول مردود لأن المشاهد أن الادخار غير مرتبط بسعر الفائدة ، ولو صحت نظريتهم لزاد الادخار بزيادة سعر الفائدة . على أن الادخار يكاد يكون غريزة أصيلة فى الإنسان والحيوان ، نشاهدها فى الرجل البدائى الذى يعيش فى مجاهل المناطق الاستوائية ، ونراها واضحة فى الإسكيمو وهو ليس بأرقى من الزنجى فى الأمازون ، كما نلمس هذه الظاهرة فى كثير جداً من الحيوانات كالنمل والنحل والسنجاب وغيرها . ويقينى أن لو استقام استعمال النقد فإن الفائدة ستلغى من تلقاء ذاتها كما سنبين ذلك إن شاء الله فيما بعد . ولن يعدل الفرد عن الادخار بحال من الأحوال ، كما أن تكوين رأس المال سيتضاعف لأن العوائق التى يقيمها استعمال النقد فى طريق التقدم الاقتصادى هى المسئولة فضلا عن الخلل الذى يعتور التوازن الاقتصادى ، وهى التى تعوق اضطراد التوسع الإنتاجى .

الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن الفائدة ليست إلا ضريبة الأغنياء على الفقراء ، توارثناها ولم نستطع منها فـكاكا بحكم سيطرة القوى على الضعيف ، وليس لها من تعليل علمى على وجه الإطلاق . بل إن الإقتصاديين الحديثين قد أخذوا عن برودون Proudhon فكرته فى أن الفائدة هى دلالة التخلخل الاقتصادى ، ولقد اقتبس سيلفيوجيزيل Silvio Gisell عن برودون هذه الفكرة ودعا لها وكوّن مدرسة جديدة سماها مدرسة النظام الطبيعى الحر Natural Economic Order ووفق أيمّا توفيق فى معالجة النظام الاقتصادى على أساس خالٍ من سعر الفائدة ، ولم يعدُ فى فكرته تصحيح معنى النقد ، ولم يزد على النظرية الإسلامية شيئاً فيما يختص بالفائدة وأوجه التداول وإن خانه التوفيق فى فهم معنى رأس المال الثابت ؛ ففشل فى حل قضية الأرض الزراعية .

وما إن مات جيزيل فى سنة ١٩٣٠ حتى طلع اللورد كينز Lord keynes بنظريته المشهورة عن « العمالة الكاملة » Full Employment سنة ٩٣٦ وفيها تدليل قوى على انعدام الفائدة إذا وصل الاقتصاد إلى حد العمالة الكاملة وهو الحد الذى تستغل فيه هبات الطبيعة بما فيها الأيدى العاملة على الوجه الأمثل . وأعقب كينز كثير من تلامذة مدرسته الجديدة التى تعتبر أقوى مدرسة فى القرن العشرين ، وبدأوا من حيث انتهى : أى أخذوا يفكرون فى ذلك النظام الاقتصادى الخالى من الفائدة وكيفية تطبيقه . وأشهر من عالج الموضوع لورد بويد أور Lord Boyd Orr وقد بنى فكرته على تثبيت الأسعار ، وهذه تتأثر بأسعار المواد الأولية : غذائية ومعدنية . ونظراً لأنها تخضع لتقلبات الطبيعة فقد أهاب بويد أور بالدول جميعا أن تتفق على تجميع المنتج من السلع الأولية الأساسية فى الصناعات ، وأن تحدد أسعارها ، وبالتالى يسهل تحديد السلع المنتجة وأجور العمال ، وتستقر الأحوال وتزدهر الأسواق ، ويصل المجتمع إلى حد العمالة الكاملة . وواضح أن الشرط الأساسى لهذه الفكرة صعب التحقيق ؛ إذ أنّى للدول المتنافسة أن تتفق فيما بينها على تثبيت أسعار المواد الأولية . وعلى كل حال فقد حاولت هيئة الأمم المتحدة أن تعقد ما يسمى باتفاقيات السلع Commodity Agreements ولم تكد تنجح إلا فترة قصيرة فى محصول واحد هو القمح ، أما سائر السلع التى تكونت لها لجان عالمية فقد فشلت جميعا ، ولم تتح

لهذه الفكرة أن تظهر بعد ، ويستبعد نجاحها لأمرين : الأول صعوبة التوفيق بين مصلحة المنتج والمستهلك والمنافسة بين المنتجين بعضهم وبعض ، والثانى صعوبة تثبيت الأسعار للسلع المصنوعة على أساس تثبيت أسعار المواد الأولية ؛ وذلك لأن السلع الصناعية تحفها عوامل كثيرة تحدد من إنتاجها وأسعارها ، وليست المادة الأولية وحدها بأهم عامل . فهنالك مثلا أجور العمال ، وهناك التوطن الصناعى ، وهناك الاختراعات الحديثة ، وأخيراً هناك رأس المال ذاته . على أن أهم ما يعاب على هذه النظرية هو عدم معالجة المرض فى منبته . والمرض هو خطأ استعمال النقود ، وهذه لم يتعرض لها بويد أور .

وقد ورث الأستاذ هارود Harrod اللورد كينز فى كرسيه بجامعة لندن وفى عمله كمستشار للخزانة البريطانية ، كما أنه حمل راية العصيان ضد الفائدة بعده ، ونشر أخيراً كتابا عزا فيه حدوث الأزمات الاقتصادية إلى وجود الفائدة . وهو وإن لم يأخذ برأى جيزيل إلا أنه متأثر قطعا بفلسفة برودون . وقد عالج الموضوع متأثراً خطى كينز : أى عن طريق ضرورة إقرار العمالة الكاملة وهذه تقتضى انعدام الفائدة تماماً . وقد دخل هارود فى تفاصيل تطبيقية مبتغياً من وراء ذلك أن يثبت الأسعار ويزيد الإنتاج ، وأن يتوافر رأس المال حتى يصل سعره أو ثمنه إلى الصفر ، واستعار الكثير من نظرية بويد أور وابتكر وسيلة لحفظ القيم المستقبلة . ولكنه على كل حال لم يكن واضح الفكرة مجمّع الرأى . وأبدع ما شرحه هو الضرر البليغ الذى يصيب المجتمع البشرى من جراء الفائدة ، وأنه لا نجاة من هذه الأضرار مالم يتخلص المجتمع من شرورها . ولا يزال قادة الفكر الاقتصادى المعاصر يحاولون جادين الوصول إلى طريقة تنتفى فيها الفائدة فى كل صورها .

أما الإسلام فعلاجه لهذا المشكل الذى إذا حُلّ أمكن الوصول إلى العمالة الكاملة على حد تعبير كينز ، أو أمكن تطبيق مبدأ التكافل الاجتماعى كما جاء به الإسلام ؛ فهو يتلخص فى معالجة الأموال المنقولة عن طريق تصحيح معنى النقد ، كما أنه يطبق نفس القاعدة ويضيف إليها قاعدة (الغنم بالغرم) فى الأموال الثابتة .

أما نظرته إلى النقد فهى نظرة بسيطة إذ النقد لا يعدو أن يكون وسيط التبادل ،

وكيلا عن السلع والخدمات ، وهو فى حدود هاتين الصفتين لا يمكن بحال أن يسوّد على غيره ، أو أن تكون له صفة تعلو على صفة (موكله) . من أجل هذا قرر الإسلام أمرين :

الأول : مبدأ ضرورة الإنفاق . وإنك لترى هذا المعنى مكررا مؤكدا فى القرآن الكريم والحديث الشريف الصحيح ؛ فقد حضنا الله تبارك وتعالى على أن نبذل المال أبداً فى قسط وحكمة ، وأنذر الذين يختزنون المال وشدد عليهم فى الوعيد فقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » والسائد فقها أن ما يحثنا عليه تعالى إنما هو أمر واجب التنفيذ يعاقب المخالف له . وقد جاء فى الحث على الإنفاق قوله تعالى : « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

هذه الناحية تبدو أدخل فى باب الأخلاق ، ولكنها فى واقع الأمر تمس موضوعنا فى الصميم ؛ إذ مما لا شك فيه أنه لو أكثر الناس من إنفاقهم لما اختزنوا المال ولازدادت سرعة التداول فازداد الطلب على المنتجات ، وازداد الإنتاج تبعا لزيادة الطلب ، وازداد أجر العامل الحقيقى وقلت البطالة ، وازداد الطلب ثانيا وهكذا دواليك . ثم إن محور المبادلة — كما سبق شرحه — أن البائع لسلعة يجب أن ينفق الثمن الذى قبضه فى شراء سلع أخرى ، فإن تبقى لديه فائض فعليه استثماره لا اكتنازه ، والاستثمار فى الإسلام يعدل الإنفاق تماما لأنه يؤدى إلى التخلى عن إمساك المال واحتجازه عن سوق المعاملات . وهذا الاحتجاز هو سبب البلوى وبيت الداء .

الثانى : مبدأ هلاك المال ، فإذا اكتنز فرد مبلغاً من المال لمدة عام واحد فإنه يجبر على أن يدفع ضريبة على هذا المال مقدارها ٢,٥ ٪ ، ومن المقرر فى الإسلام قوله صلى الله عليه وسلم « إن فى المال حقاً غير الزكاة » ومعنى هذا أن هذه النسبة يمكن أن تزاد إذا اقتضى الأمر ذلك . والذى يهمنا فى هذا المجال هو النظرية الاقتصادية التى تقضى بعدم تسويد المال ، وبطرح هذه السيادة والجحود بهذه القداسة اللتين

أسبغناها على النقود . الإسلام لا يبيح الفائدة بحال من الأحوال ؛ ولذلك لم يكتف بالنهى والزجر ولا بالتشريع والتقنين ، ولـكنه أنزل المال من عرشه إلى مستوى باقى السلع ، ففرض عليه ضريبة تنزع عنه حصانته ؛ وتجعل المكتنز مجبراً على الإنفاق ، وجعل هذا المبدأ من الأسس التى تقوم عليها الدولة الإسلامية . والممتنع عن دفع هذه الضريبة يلاقى أقسى الجزاء إذ أنه يحارب عليها ويقتل فيها . ولست أحسب نظاماً دنيوياً وصل إلى هذا الحد فى الاهتمام بالاقتصاد والمعاملات المادية .

وخلاصة القول أن الإسلام قد حتَّم فى دستوره الاقتصادى (العمل الصالح) أى العمل المنتج لخير الجماعة ، وشرع لخير البشرية بحيث يساعد المجموع كل فرد ليزيد من إنتاجه ، وهذا لا يتصور إلا إذا سهل على الفرد أن يجد منصرفاً وسوقاً رائجة لمنتجاته . ولن يتم هذا مالم يشتر الأفراد بمقدار ما يكسبون . وحيث أن النقد هو واسطة التبادل وأنه إذا أسىء استعماله يفضى إلى وقف عملية الشراء ، وبالتالى وقف عملية الإنتاج فقدألزم أفراد المجتمع الإسلامى أن يسارعوا فى إنفاق أموالهم ، فمن لم ينفق فمليه غرمه . أما كيف يطبق هذا فى العصر الحديث فهذا ما سنفصله فيما بعد إن شاء الله .

إذا نُودى لِلخـير فكُنْ أوّلَ سبّاقِ
وإن عوديتَ فاستعصِمْ بآدابٍ وأخْـلاقِ

إن لبدنك عليك حقاً

بإشراف اللواء الدكتور أحمد الناقه

س ١ : قال لها الطبيب إن قلب طفلها عرضة للإصابة بالروماتزم إذا لم تستأصل اللوز ، ولكن صديقتها حذرتها سوء عاقبة الجراحة ، وذكرتها بابن الجيران الذى ذهب ضحية الجراحة منذ سنين . الأم حائرة تخشى على قلب طفلها من المرض وعلى حياته من الجراحة .

ج ١ : مع الوسائل الحديثة فى البنج والجراحة لا محل إطلاقاً للخوف على حياة الطفل ، ومادامت اللوز مريضة فخطرها على القلب شديد واستئصالها واجب عاجل .

* * *

س ٢ : يريد خلع أسنانه ولكنه يخشى النزيف .

ج ٢ : لا تخف إذا استعملت حبوب فيتامين «ك» ٢٠ مليجرام ثلاثة أيام قبل الخلع .

* * *

س ٣ : ماسبب حب الشباب ؟ وماعلاجه ؟

ج ٣ : يظهر حب الشباب عادة بين سن ١٣ و ٣٠سنة ، وليس سببه معروفاً ، ولكن عوامل شتى قد تعين على ظهوره : ضعف الغدد . جراثيم . نقص فيتامين «ا» وبخاصة مع سوء التغذية وعسر الهضم والإمساك والحياة الراكدة المغلقة . والعلاج : تنظيم الحياة والهضم والغذاء ، ومنع الدسم والنشا والسكر ، وإزالة بؤر الجراثيم والإمساك ، وممارسة الرياضة فى الشمس والهواء الطلق ، واستعمال فيتامين «ا» بمقادير كبيرة لمدة شهور . وأخيراً استعمال الكبريت غسولاً للجلد الرطب ومرهما للجلد الجاف ومسحوقا للنساء ، وحمض سلسيل وريزرسين للقشر ، والزئبق لتطهير الجلد . وقد تفيد الأشعة فوق البنفسجية أحياناً ، وأشعة إكس فى الحالات المستعصية .

* * *

س ٤ : سرطان الثدى ، هل له من علاج غير الجراحة ؟

ج ٤ : الجراحة هى العلاج الناجح فى أول المرض . أما إذا امتد إلى العقد اللمفاوية والكبد والرئة والعظام فلاتنفع الجراحة ، ولكن قد يمكن إيقاف المرض إلى حين باستئصال المبيضين وغدتى فوق الكليتين، واستعمال كرتزون . وهذا علاج مؤقت لايشفى .

* * *

س ٥ : قيل لها اغسلى المهبل بمحلول حمضى لمنع الحمل فهل ينفع ؟

ج ٥ : لا ينفع وقد يضر .

* * *

س ٦ : يسمع وشًا فى رأسه ويخشى أن يكون ذلك نذير الجنون ؟

ج ٦ : هذا زعم خاطئ إلا إذا كانت الأصوات ذات معنى : أجراس . أغانى . أحاديث . وليست وشا مستمرا .

* * *

س ٧ : جده يشكو نزلة شعبية مزمنة فما علاجها ؟

ج ٧ : الجراثيم تسبب الالتهاب والبلغم ، ويبيدها بنسيلين وستربتوميسين . وانقباض الشعب يسبب ضيق النفس ، وعلاجه أمينوفلين . ومشورة الطبيب خير .

* * *

س ٨ : فتاة تشكو البدانة قيل لها اجعلى اللبن أهم غذائك ، ولكنها شعرت بضعف شديد ولم تطق عليه صبرا .

ج ٨ : كل تغيير مفاجىء فى نوع الغذاء قد يضعف . ومن الخير التدرج فى الاستعاضة باللبن عن الطعام الدسم والنشوى والسكرى . وقد يفيد الإقلال من ملح الطعام ومن شرب السوائل .

باب الكتب: نقد وتعريف

التبشير والاستعمار فى البلاد العربية

تأليف : الدكتور مصطفى خالدى رئيس مدرسة التمريض الوطنية فى بيروت ، والدكتور عمر فروخ عضو المجمع العلمى العربى بدمشق .

الناشر : المكتبة العلمية ومطبعتها — بيروت عام ١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م

الصفحات: ٢٢٩ ص ك .

الفصول : عشرة ، تسبقها كلمة وتوطئة .

المصادر والمراجع : أورد المؤلفان ثبتاً بها ، ذكرا فى أوله : « مصادر هذا الكتاب كثيرة جداً نجتزئ هنا بذكر نحو مائة مصدر ومرجع ، ثم بعدد آخر يجده القارئ فى ثنايا الحواشى » . والثبت يحوى كتباً إنجليزية وفرنسية ، ويحوى كتابا واحداً بالألمانية .

***

هذا كتاب جديد ، يأتى بعد الكتاب القديم الذى سبق أن نشر فيه الأستاذان مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب سنة ١٣٥٠ هـ ، ماسبق أن ترجماه من قبل بالمؤيد سنة ١٣٣٠ هـ نقلا عن A. Le Chatelier فى مقاله La Conquete du Monde Musulman المنشور بمجلة Le Revue du Monde Musulman . واتخذ المترجمان له اسماً عربيا هو « الغارة على العالم الإسلامى » .

ومنهج البحث يختلف فى أحد الكتابين عن الآخر ؛ فالكتاب القديم ترجمة مباشرة لمقال يعرض أعمال المبشرين البروتستانت ، وذيل الكتاب بتعليقات خفيفة بعنوان « نجوى إلى القراء » ، « الجواب على مقالة المجلة الفرنسية » فى تسع صفحات ، وترك الكتاب المقال نفسه دون درس وتحليل لأن نشره وإبرازه مغنيان عن التعليق ، وينبهان الأذهان لهذا الخطر الكبير ، لكن الكتاب له فضل السبق بأكثر من أربعين عاما فى هذا الباب عن زميله الآخر .

أما الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القراء فهو دراسة شاملة لكتب كثيرة تناولت سياسة التبشير وأعمال المبشرين ، واختيرت مقتبسات من هذه الكتب ولم تعرض عرضا مباشراً ، وإنما أوردت فى ثنايا الكتاب مشفوعة بالتعليق والتحليل ، فنحن أمام تأليف كامل لا مجرد ترجمة .

والكتاب يتناول غاية التبشير ، ويتناول وسائله .

فيقول عن غاية التبشير ص ٤٠ : « ولاريب فى أن الباعث الحقيق والأول فى رأى القائمين على التبشير إنما هو « القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد أتباعها . إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين ، بل معركة فى سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية » .

ثم يقول فى الصحيفة نفسها : « ويبدو بوضوح أن أشد الأديان مراسا فى إباء الاستعباد إنما هو الإسلام ، ولذلك يتمنى المبشرون أن يُنصِّروا المسلمين كلهم » !

لكن المؤلف يقول فى ص ٤١ و ٤٢ : « ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمى واكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب . من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم الإنسانى قاصرا على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل » ! !

وهذا تحديد دقيق لغاية التبشير . .

إن الغرب المادى لا يتصور أى عاقل يقود معركة فى باب الدين إلا من أجل المادة التى كفر بكل ما عداها ! ! وإن التبشير عنده قلم من أقلام شئون المستعمرات . . تماما كالدعاية والجاسوسية وغيرها من الشئون الحربية ! !

وكنت أود أن يدور الكتاب كله على إيضاح هذه الغاية فى سياسة التبشير وأعمال المبشرين بصورة قوية واضحة ، حتى يبدو التبشير ملحقا بالاستعمار ، وحتى يبدو أن المسلمين فى مقاومة التبشير لا يتأذون من منافسة دين ولا يتعصبون ضد أهله ، وإنما هم يحذرون الخطر الكامن وراء هذا الستار الزائف ! !

نعم — كنت أرجو أن يرتبط الحديث عن التبشير بالوصل بينه وبين الاستعمار حتى يطابق موضوع الكتاب عنوانه فى كل الفصول ، وأن يزيد التفصيل فى هذا الفصل بالذات المعنون « بواعث التبشير » فإنه بيت القصيد وعلى أساسه اختير عنوان الكتاب كله !!

لكن الكتاب على كل حال لم يحرمنا إشاراته المختلفة، فهو يقول فى ص ١١٧ :

« لقد كانت تركية على حق حينما بدأت منذ أمد ترتاب فى حركات التبشير فى امبراطوريتها ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش إلى كل مكان » والعبارة الأخيرة قوية ، ما كان أجدرها أن تكون شعار البحث فى كل مناهج الكتاب ، وأن تدعم بالشواهد والوثائق والنصوص .

وهو يعالج هذه القضية بأسلوب أصرح وأوضح فى الفصل السابع الذى جعل عنوانه « الإدارة الأجنبية فى خدمة التبشير » وذلك حيث يقول : (وقف المبشرون ورجال السياسة الآن وجها لوجه : أى الفريقين يجب أن يتقدم الآخر ؟ ؟ إن المعروف فى التاريخ أن المبشر كان يدخل البلاد ثم يأتى الجيش على أثره ، ولكن المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبوا أن يتقدم الجيش أولاً ، لأن ذلك يسهل مهمتهم . ولذلك كان الحكام الوطنيون فى كل بقعة على حق حينما كانوا « يعتقدون أن مجىء المبشرين ينتهى دائما بتدخل الدول النصرانية فى بلادهم وبخسارتهم جزءا من استقلالهم » . ولكن هذه الطريق طويلة ، ولذلك كان المبشرون يرغبون فى أن تتدخل الدولة بقوتها أولاً ثم يأتون هم فيجدون الطريق ممهدة للتنصير) ص ١٤٧ .

ونحن لا يهمنا على كل حال أن يستقر رأى الاستعمار الغربى على أن يرسل المبشر أو الجندى أولا ، إنما يهمنا ارتباط التبشير بالاستعمار وإبراز ذلك فى كل فرصة ، فإن هذا هو العنوان المختار للكتاب .

والمؤلفان يبرزان هذا الارتباط أيضاً فى ص ١٥٩ حيث يقولان : « إن فرنسا تستوحى الفاتيكان سياستها الدينية لتثبت بها أقدامها فى مستعمراتها . وهذا يقضى عليها بأن تعاضد الرهبان والمبشرين فى حملتهم على كل بلد مستقل ، وعلى المسلمين خصوصاً » .

ومع ذلك فأنا ما زلت أقول : إن هذا المنحى كان جديراً بأن يكون أقوى مما هو عليه الآن فى ثنايا الكتاب !!.

لقد نقل المؤلفان الفاضلان فى صدر كتابهما عن المبشرين أنفسهم ، أن أملهم فى تنصير المسلمين قد زال ، وأنهم لا يهدفون اليوم إلا إلى زعزعة المسلمين عن عقائدهم . . . .

والكتاب يقول فى ص ٨٦ — ٨٧ « وبما أن غاية المبشرين ليست دينية فى الدرجة الأولى ، بل هى إفسادية يحاولون بها أن يفككوا وحدة الأمة الإسلامية ليحكموا شعوبها ، فإنهم قنعوا أن يفسدوا هذه الشعوب ، لأن إفساد الشعوب يصل بالمبشرين إلى غايتهم القصوى ، وهى تمكين الدول الغربية من حكم الدول الإسلامية .. يقول المبشر تكلى « إن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الإنجليزية . إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس صعباً جداً » .

وينقل الكتاب عن ألمر دوجلاس من مقاله عن ملاجئ الأطفال فى الجزائر « إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم » ص ١٩٢ .

ويقول الكتاب فى ص ١٩٤ « . . . ولكن المسلمين رأوا فساد الأخلاق يمشى مع هؤلاء الغربيين خطوة خطوة » وينقل عن Jessup قوله « لقد كان الاحتلال الإفرنسى لعنة فى سورية ؛ فقد فتح هؤلاء الإفرنسيون فى لبنان ٥٠ حانة وعدداً كبيراً من بيوت الدعارة ، وكذلك تفشى السكر إلى حد لم يكن معروفا . ثم زال الاحتلال الفرنسى ، ولكن سيئاته لم تزل » ص ١٩٤ . وفى صدر فصل « الأعمال الاجتماعية طريق التبشير » يورد الكتاب ما ملخصه « إن البشر عادة مقسمون حسب أعمالهم ، وقلما يتيح لهم انصرافهم إليها أن يجتمعوا أثناء القيام بها ، فهم يلجأون إلى خلق جو اجتماعى يجمع بينهم فى الحفلات الرياضية والخطابية ، وفى الأندية الأدبية والسياسية ، وفى الاتصال فيما بينهم من طريق الصحف والمجلات وأعمال البر والإحسان ، وفى الاجتماعات المختلطة بين الجنسين رجالا ونساء . والمبشرون يعرفون هذه كلها فى بلادهم فأحبوا أن ينقلوها إلى بلادنا نحن ، لا حباً بنا بل توصلا إلى اختراق السور الذى ضربه العرف الشرقى حول الأسرة المسلمة ، كى يُفتح لهم باب جديد يلجونه للتبشير بيننا . تلك كانت غايتهم الأولى من النشاط الاجتماعى الذى أحبوا أن يبثوه فى بيئتنا بواسطة المدارس الأمريكية خاصة ، ومن طريق الخدمة الاجتماعية بين الفلاحين أيضاً » ص ١٨٨ .

ويضغط الكتاب على اتجاه التبشير إلى ناحية المرأة فيقول فى ص ١٩٧ « ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة قد تخطت عتبة دارها ، لقد خرجت إلى الهواء الطلق ، لقد نزعت عنها حجابها !! ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت كل ذلك ، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة فى الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية . ولهذا السبب خاصة أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة جديدة !! »

ومرة أخرى أقول .... كنت أحب ....

نعم — كنت أحب أن يبرز الكتاب هذا الجانب السلبى الخطير من التبشير ، هذا الاتجاه الذى يئس من أن يتنصر المسلمون ، فاتجه إلى أن ينسى المسلمون الإسلام .

إن محاولة إذابة الشخصية الإسلامية ، وصبها فى قوالب غربية ، هى أخطر محاولة وأنجح محاولة فى تاريخ التبشير والاستعمار . .

القومية السياسية ، و (الفرنجة) الاجتماعية ، والثقافة الغربية ، كل هذه أفكار تدنينا من الغرب المبشر المستعمر ، وتبعدنا عن الإسلام ، دون أن يكون لها عنوان يزعجنا : عنوان التبشير أو عنوان الاستعمار ! !

ولقد تناول المؤلفان ذلك كله فى الفصول الثلاثة الأخيرة وهى : الدعوات الإقليمية ، الأعمال الاجتماعية ، تشويه الثقافة العربية تحت ستار الاستشراق . .

ولكنى كنت أرجو لهذا الجانب الخطير إبرازا يتفق مع خطورته ، ومع نجاح الغرب فيه إلى حدّ بعيد .

* * *

والكتاب قد استقصى وسائل التبشير كلها ، وهو يلخصها فى قوله الذى ختم به الفصل الأول « ونحن نحب من القارئ أن يتبين أن حب الخير والتعليم والتطبيب وما إليها هى وسائل للتبشير . ثم إن التبشير نفسه ستار للتبشير التجارى والسياسى وأساس متين للاستعمار . ولنذكر دائما أن أكثر الفتن الداخلية فى الشرق ، من دينية وسياسية واجتماعية ، إنما قام بها المبشرون والذين استأجرهم المبشرون » ص ٥١ .

وهو يبرز فى ذلك أموراً خطيرة ، منها ما أورده عن ضرب الحصار العسكرى على المسلمين وإبعادهم عن الشواطىء « اقترح المبشرون أن يشلوا حياة المسلمين بإبعادهم

عن الشواطىء ذات الأمطار الوافية وطرق المواصلات الكافية والمراكز الحربية المهمة ، ثم حصرهم فى الداخل وفى الصحارى على الأكثر . إن اقتراحات مثل هذه قد أبديت فيما يتعلق بإسكان اللاجئين بعد كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨ . إلا أن الفكرة نفسها قديمة ، فقد كتب كاتب اسمه اشميا بومان فى مجلة « العالم الإسلامى » مقالا سنة ١٩٣٠ عن « الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى » اقترح فيه أن تتفق بريطانية وفرنسة ، ما دامت أكثر الدول سيطرة على العالم الإسلامى على سياسة « السيطرة على الشواطىء » حيث يمكن وصول الدوارع وآلات القتال الحديثة بسهولة » ص ١٣٠ — ١٣١ .

وهو يتكلم عن سياسة التفرقة الاستعمارية التى يغذيها المبشرون « كان الدروز مثلا يعتمدون على حماية الفكرة ويفضلون المدارس الأمريكية . أما الموارنة فكانوا يرون حليفهم الطبيعى فى فرنسة ويفضلون المدارس الفرنسية ، وكانوا يتلقون السلاح من فرنسة ، وكان الدروز يتلقون السلاح من إنكلترة » ص ١٣٧ .

ويتناول تقسيم لبنان فيقول « لقد اقترح مترنخ أن يقسم جبل لبنان قائمقامتين إحداها إسلامية والثانية مسيحية ، فاضطرت الدولة العثمانية إلى قبول هذا الاقتراح . وها هى أوربة بعد قرن واحد تعود إلى السياسة نفسها فى شأن فلسطين . . هكذا عرفنا كيف استيقظ جبل لبنان إلى النعرة الطائفية » ويعرض للفتن التى قامت نتيجة هذا التقسيم منذ سنة ١٨٤٠ ، وآخرها فتنة سنة ١٨٦٠ التى يعلق عليها أخيراً بعد أن يورد تعليقات المبشرين « ولكن ماذا يهمنا الآن من حمل التبعة على الموارنة أو على الدروز ؟ إن هذه الفتنة الدينية كانت نقمة على لبنان ، ولكنها حققت للدول الأجنبية هدفا عظيما . قد لا يكون لهذه الفتنة صلة بالدين ، ولكن كان لها بلاريب صلة بالسياسة (لقد انعقد فى بيروت مؤتمر دولى حضره المفوض السلطانى مع خمسة من وكلاء الدول ومفوضيهم ، أعنى إنكلترة وفرنسة والروسية والنمسة وبروسية ، وقرروا أن تكون إدارة الجبل بواسطة متصرف مسيحى من طرف الدولة العلية وبرضا الدول) . . « هذا المتصرف يجب أن يكون نصرانيا أوروبيا ومن أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لا وطنياً سوريا مسلماً كان أو مسيحيا » ص ١٤٥ .

والكتاب يربط إلى مجلة التبشير مؤسسات يجهل الكثير من المسلمين عنها هذا الارتباط فيقول :

(جاء في مقررات مؤتمر المبشرين الذي انعقد في القدس ما يلي « نحب أن نؤكد الأهمية البالغة للعمل بين الصغار وللصغار قبل أن تتشكل عقليتهم وأخلاقهم تشكلا إسلامياً . إن جميع الوسائط التي استخدمت وظهر نجاحها يمكن أن تستخدم من جديد لتوقظ عقول الصغار وتجلو أخلاقهم ، سواء في ذلك ماتعلق بالمدرسة أو ما كان خارجا عن نطاق المدرسة ؛ فمن ذلك : الكشفية للفتيان والفتيات — مدارس الأحد — جمعية الشبان المسيحية وجمعية الشابات المسيحيات وسواهما من منظمات الشباب — المخيمات والمؤتمرات للطلاب الأندية والرياضة ومايتصل بذلك — بيوت الطلبة التي زادت الحاجة إليها لزيادة عدد الطلاب — بيوت للأطفال يشرف عليها مبشرون فقط » .

وهكذا يمضي الكتاب في كشف اللثام عن وسائل للتبشير تتخذ أسماء بريئة لتخدع المسلمين !!

* * *

وبعد: فلقد صدق المؤلفان الفاضلان حين قالا « لقد حرصنا نحن على أن نثبت هذه التهم الكبرى بشواهد من كتب المبشرين أنفسهم . إننا لم نلجأ إلى خيالنا ولا إلى قوة أسلوبنا وبراعة تعبيرنا ، بل رجعنا إلى ما كتبه الأجانب تلميحاً أو تصريحا ، ولقد فضلنا في الاستشهاد التصريح على التلميح » . ص ٧ ، وهي خطة مثلى ، تصدقها كل صفحات الكتاب ، التي تشهد بالجهد الصادق والمنهج العلمي الصحيح .

لقد قال المؤلفان في كلمتهما الأولى « لم يحاول أحد بعد وضع مثل هذا الكتاب في اللغة العربية . ولقد رأينا نحن أن واجبنا الديني والقومي والوطني يدعونا إلى أداء هذا الواجب وحمل هذه الرسالة على بعدها عن مباحث اختصاصنا وعلى طول الوقت الذي تتطلبه ، إلا أننا أدركنا أن السكوت عن هذا الخطر أشد ضرراً على قومنا من إهمال موضوعات اختصاصنا » :

وأشهد أن المؤلفين قد أديا الواجب وحملا الرسالة في صدق ووفاء .؟

مع العارفين

مكحـــول

[العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبى بالكوفة ، والحسن بن أبى الحسن بالبصرة ، ومكحول بالشـام] .
« الزهرى »

كان مجلساً طريفا فى أمسية من أماسىّ الربيع فى دمشق ، وكان فى المجلس تميم بن عطية المنسى وإسماعيل بن عباس وعبد الرحمن بن يزيد ، وتنقلوا بين طرائف من العلم وأخبار الرجال أضفت على مجلسهم روحاً رقيقة ومزيجا من الجد والدعابة ، وبينا هم فى ذلك إذ بخالد بن جبلة يقول : « إن بركة العلم فى صدق العالم وطالب العلم ، وأعجب ما يعجبنى فى العالم ورعه فى علمه ، وقوله لا أدرى حين لا يدرى » . . . . وكأن خالدا بهذه الكلمات قد أضاء مصباحاً فى مجلس القوم ، فإن كلمة الصدق ما لبثت أن شغلتهم عن دعاباتهم ولفتتهم إلى أنفسهم لفتة بديعة ، وكلمة الصدق — ككل كلمة من كلمات الحق والخير — يسهل ترديدها وتسهل الغفلة عنها ، إلا أن تخرج صادقة من فم قائلها ، فإنها حينئذ تصدر عامرة بحقيقتها ؛ « والحقائق » قوى قائمة لا يتخلف أثرها ، وإنما يتخلف الناس عنها حين يكذبون عليها ، وكذبهم حينئذ « حقيقة » أخرى لها أثرها اللازم الذى لا يتخلف . . . . لا يمنع ذلك أن تزخرف مسوح الكذب ويتطاول بنيانه ، بل إن ذلك أحيانا من سنن الله مع الكاذبين « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين » ، حتى إذا بلغت الموجة المزبدة الشاطئ الرابض لها — مهما استعلت — تكسرت عليه « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » وربما دهمها وهى فى عنفوانها إعصار قبل أن تبلغ الشاطئ « فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » — إن أمثال هذه الآيات فى القرآن لا يجوز أن يسمعها المؤمن كما يسمع سائر الكلام ؛ لأن الذى قالها هو

الذى خلق الكون بكل ما فيه من قوّى وجوهر وعرض ، وهو الذى خلق نواميسه جميعاً ؛ فهو حين يتكلم يتكلم كلام الذى يخلق والذى يحيي والذى يميت ، وقد كان حسْب الناس أن يسمعوا مثل قوله « وهو القاهر فوق عباده » لتقشعر جلودهم وليسارعوا إلى تعرف ما يريد . وهو إنما أنزل الكتب وبعث الرسل ليعلن إرادته ، وليبين للناس أحكامه ، وهى إرادة لا تنازَع ، وأحكام لا تتخلف . . . .

هذه استطرادة نعود بعدها إلى ما كان القوم فيه ، فإن كلمة خالد حركت نفوساً وأهاجت أشجانا ، ورفع تميم المنسى رأسه وفى عينيه دمعتان ساخنتان وقال : « رحم الله مكحولا الشامى . . . ما أكثر ما كنت أسمعه يقول : نادانم[1] ! » .

فقال رجل فى طرف المجلس : ذكرت عزيزاً يا تميم . . . أولئك يا أخى العلماء ، لقد حدثنا عن مكحول أنه كان من أعبد الناس، وأنه لم يفته صوم الإثنين والخميس حتى لقى ربه رحمه الله . . . » .

فقال آخر : أليس هو الذى قال : « من أحبّ رجلا صالحا فإنما أحب الله ، ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو فى طريق الجنة حتى يرجع » .

— بلى ، روى ذلك عنه ثوبان .

— ألا تحدثنا يا عبد الرحمن بن يزيد عن مكحول فإنك قد حضرته وسمعته .

— إى والله حضرته وسمعته ، ولقد كان يخشى على الناس علماء السوء بقدر ما كان يحب العلم ويحض عليه . . . كان يقول : « لا يأتى على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار » .

— لله دره ! حدّث أبو عبد الرحمن الدمشقى أنه سمعه يقول : بينا سليمان بن داود على بساط من شعر وأصحابه حوله إذ أمر الريح فاستقلته وسارت الجن والإنس أمامه والطير تظله ، إذا حراث يحرث على جانب الطريق ، فقال الحراث : لو أن سليمان بن داود عندى كلمته بثلاث كلمات ، فأوحى الله تعالى إلى سليمان بن داود

---

(١) نادانم : كلمة فارسية معناها : لا أدرى .

أن ائت الحراث .. فركب على فرس له حتى أتاه . قال يا حراث : أنا سليمان فقل ما أردت أن تقول . قال وما علمك أنى أردت أن أقول ؟ قال الله أعلمنى . قال أشهد له بذلك . قال والله إلا أنى رأيتك فيما أنت فيه فقلت والله ما سليمان فى لذة لذها أمس ولا فى نعيم نعمه وأنا فى تعب تعبته أمس وفى نصب نصبته إلا سواء ؛ لا سليمان يجد لذة ما مضى ولا أنا أجد تعب ما مضى . قال وأخرى قلتها — قال : وما هى ؟ قلت : سليمان يموت وأنا أموت — قال : صدقت ! — قال ولكنى يا سليمان قلت كلمة طيبت بها نفسى : قلت سليمان يسأل غداً عما أعطى وأنا أسأل . قال : فخر سليمان ساجداً يبكى وهو يقول : يا رب لولا أنك جواد لا تبخل لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتنى ، قال فأوحى الله تعالى إليه : يا سليمان ارفع رأسك فإنى لم أنعم على عبد لى نعمة فتكون تلك النعمة رضاً فأحاسبه عليها .

— وكان رحمه الله ذا بصيرة مع كتاب الله تكشف له أسراره وكنوزه ، وكان يقول : اقرأ القرآن ما نهاك ، فإذا لم ينهك فلست تقرأه . وروى عنه العلاء بن الحارث قوله « أربع من كن فيه كن له ، وثلاث من كن فيه كن عليه ؛ فأما الأربع اللاتى له : فالشكر ، والإيمان ، والدعاء ، والاستغفار . قال الله تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » وقال : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » وقال : « ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » وأما الثلاث اللاتى عليه : فالمكر ، والبغى ، والنكث . قال تعالى : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » وقال : « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » وقال : « إنما بغيكم على أنفسكم » .

— وروى عنه النعمان بن المنذر فى قوله تعالى « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » قال : وضع عنهم الإثم فى الخطأ ووضع المغفرة على العمد .

— وكان على علمه وفضله رحمه الله جميل الصورة حلو الهيئة ، وكان يقول : « من طابت ريحه زاد فى عقله ، ومن نظف ثوبه قل همه » ولعمرى إنها لكلمات بصير .

— وكان كذلك شجاعا لا يخاف فى الله لومة لائم : حُدِّثنا أن يزيد بن عبد الملك بن مروان أقبل عليه وهو فى أصحابه ، فرآهم مكحول يهمون بالتوسعة له فقال : مكانكم دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع .

— وكان حكيما لبيباً ، يروى عنه النعمان بن المنذر «لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق فما نقضوا من عهد الله أكبر من عهدكم» .

— وأسند رضى الله عنه عن أنس بن مالك وواثق بن الأسقع وأبى الأمامة الباهلى وأبى هند الدارى وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمرو وأبى الدرداء وشداد بن موسى وأبى هريرة ، وله أحاديث غريبة تفرد بها رحمه الله — روى عن واثق ابن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يبعث الله عبداً يوم القيامة لا ذنب له ، فيقول الله : بأى الأمرين أحب إليك أن أجزيك ، بعملك أو بنعمتى عندك ؟ قال يا رب إنك تعلم أنى لم أعصك . قال خذوا عبدى بنعمة من نعمى — فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة . فيقول رب بنعمتك ورحمتك . فيقول بنعمتى ورحمتى . ويؤتى بعبد محسن فى نفسه لا يرى أن له ذنبا . فيقول له هل كنت توالى أوليائى ؟ قال كنت من الناس سلما . قال فهل كنت تعادى أعدائى ؟ قال يا رب لم يكن بينى وبين أحد شىء . فيقول الله عز وجل : لا ينال رحمتى من لم يوال أوليائى ويعاد أعدائى .

— وروى عن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبعدكم منى مساوئكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » .

— وروى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « حجة قبل غزوة أفضل من خمسين غزوة ، وغزوة بعد حجة أفضل من خمسين حجة ، ولموقف ساعة فى سبيل الله أفضل من خمسين حجة » .

— وروى عن شداد بن أوس « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا على باب الحجرات إذ أقبل شيخ من بنى عامر هو مدره قومه وسيدهم مع شيخ كبير

يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده فقال : يا ابن عبد المطلب أخبرنى ماذا يزيد فى العلم ؟ قال : التعلم — قال : فما يزيد فى الشر ؟ قال : التمادى . فقال : هل ينفع البر بعد الفجور ؟ قال : نعم ! التوبة تغسل الحوبة والحسنات يذهبن السيئات ، وإذا ذكر العبد ربه فى الرخاء أجابه عند البلاء . قال : يا ابن عبد المطلب وكيف ذلك ؟ قال : لأن الله عز وجل يقول : وعزتى وجلالى لا أجمع أبداً لعبدى أمنين ولا أجمع عليه أبداً خوفين . إن هو أمننى فى الدنيا خافنى يوم أجمع عبادى لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه . وإن هو خافنى فى الدنيا أمننى يوم أجمع عبادى فى حظيرة القدس فيدوم له أمنه ولا أمحقه فيمن أمحق » .

— وروى عن أبى أيوب الأنصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « كل صلاة تحط ما بين يديها من الخطيئة » .

— وروى عن شرحبيل بن السمط قال : مر بى سلمان فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأمن النفاق وجرى عليه رزقه » .

— رحمه الله رحمة واسعة ، لقد أجزل الله له الفضل ولا أحسبه إلا أجزل له الأجر والمثوبة — حُدثت أن عبد ربه بن صالح دخل على مكحول فى مرضه الذى مات فيه فقال له : « أحسن الله عافيتك أبا عبد الله ؟ فقال : الإلحاق بمن يُرجى عفوه خير من البقاء مع من لا يؤمن شره . . »

* * *

رضى الله عن مكحول وأرضاه .

لبنان

١ — جغرافيته : يشكل لبنان الجزء الشمالى الغربى مما يسمى بمنطقة الهلال الخصيب ، ويقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط . تجاوره من الشمال والشرق الجمهورية السورية ، ومن الجنوب فلسطين المحتلة ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط . معظم أرضه جبال عالية تغطيها الثلوج معظم أيام السنة ، وتكثر فيها الأحراش الكثيفة . وبه سهل ساحلى ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب على طول الساحل ، تزرع فيه الفواكه والموالح والموز والخضروات . وبه سهل آخر داخلى خصب جداً يسمى سهل البقاع ، تسقيه ينابيع كثيرة بالإضافة إلى مياه الأمطار ، ويخترقه نهر الليطانى الكبير الذى يستفاد منه فى الرى بشكل جزئى جداً ، وتزرع فى سهل البقاع الحبوب وفواكه المناطق البـاردة والخضروات والزيتون .

٢ — الحالة الاقتصادية : أهم مورد للمعيشة فى لبنان هو موسم الاصطياف ؛ فإن الله تعالى قد وهب جبال لبنان وسهوله جمالاً طبيعياً فى غاية الروعة مما جعله مركزا عالمياً للاصطياف . وللحكومة اللبنانية جهود فى تحسين المصايف وتشجيع الاصطياف ، ولكن جهودها محدودة . وهو مصيف الشرق الأوسط جميعه . ويمتاز أهل لبنان بلطف المعاشرة ودماثة الخلق والعناية الفائقة بالمصطافين .

ثم تأتى زراعة الفواكه والخضروات وهى تكثر جداً فى جميع بقاع لبنان ، وأرض لبنان خصبة ولكنها قليلة ، فأنت ترى أن لبنان يستورد الحبوب على نطاق واسع ويصدر الفواكه بكميات كبيرة ، ويصدر الزيت والزيتون . ولكثرة زراعة الفاكهة نشأت صناعات زراعية كثيرة كتجفيف الفواكه وحفظها ، وعصر الفواكه وتكثيف العصير فى أوانى بشكل متقن وشحنها للخارج ، ونشأت صناعة الصابون ، وعصر الزيوت من الزيتون وغيره من الفواكه .

أما المورد الثالث — وهو مورد حديث لم يستغل بعد — فهو البترول الذى اكتشفت ينابيعه حديثاً فى سهل البقاع فى منطقة قريتى صُحْمُرْ ويُحْمُرْ ؛ وينتظر أن يكون له أثر فى تحسين الحالة الاقتصادية فى البلاد .

٣ — الحالة الاجتماعية : يزيد عدد سكان لبنان عن ١,١٠٠,٠٠٠ نسمة يشكلون مجموعات مختلفة من الطوائف الدينية التى تكثر فى لبنان . وقد وضع المستعمر قانون الطوائف وقسم فيه المسلمين إلى ثلاث طوائف ؛ كل طائفة تنفصل عن الأخرى انفصالاً كلياً ، وهذه الطوائف هى : الطائفة السنية ، والطائفة الشيعية ، والطائفة الدرزية . وقد تمكن المستعمر أن يُلقى فى نفوس أفراد كل طائفة أنهم فعلاً منفصلون عن غيرهم من الطوائف الإسلامية . والغاية التى هدف إليها المستعمر من وراء هذا التقسيم هى أن يجعل الطائفة النصرانية صاحبة الأكثرية فتكون لها أكثر مرافق الدولة بالإضافة إلى رئاسة الجمهورية والأكثرية النيابية والبلدية وغيرها . ولو أمكن جمع طوائف المسلمين الثلاث فى كتلة واحدة لصار مجموعها أكثر من ٦٠٪ من سكان البلاد ، ولكان لها السيطرة التامة على شئون البلد . وبهذا التقسيم الطائفى تسلطت الطائفة المارونية على جميع لبنان وتصرفت فى أقداره وشئونه ؛ ومن هنا ترى لبنان يشذ عن سياسة البلاد العربية الإسلامية فى كثير من المواقف .

وأثر اختلاف الطوائف يظهر واضحا فى السياسة الداخلية فى لبنان . ونستطيع أن نقول إنه يشبه إلى حد بعيد ما كان متبعاً مع العرب واليهود فى فلسطين ؛ فأنت ترى مثلاً القسم النصرانى فى لبنان يتمتع بجميع المرافق العامة من مدارس ومستشفيات وطرق مواصلات وكهرباء وتليفونات وغير ذلك . بينما تجد المناطق الإسلامية تحتاج إلى مستشفى ، وطرق المواصلات معدومة بين القرى والمدن وإن وجدت فهى غير معبدة ، ولا كهرباء ولا مدارس ولا تليفونات إلا فى المراكز . وقد انتهجت الحكومة سياسة زراعية غريبة فبينما ترى الآفات الزراعية تقضى على المزارع فى المناطق الإسلامية دون أى التفات من الحكومة ترى وزارة الزراعة تحشد كل إمكانياتها لمكافحة الآفات فى المناطق النصرانية .

هذه الفوارق الاجتماعية الداخلية جعلت المسلمين فى حالة سيئة ، وأدت بهم إلى الهجرة من بلادهم إلى أمريكا أو أفريقيا أو استراليا وبالهجرة يقل عدد المسلمين

وتتعطل الأرض ويضطر أهلها إلى بيعها بثمن بخس. ولمن ؟ للنصارى فقط وهكذا ...
وعلى هذه السياسة تؤول البلاد إن عاجلا أو آجلا إلى بقعة مسيحية فيها جالية إسلامية فقط بعد أن كانت الأكثرية فيها إسلامية . إن هذا الوضع يذكرنا بمادة في دستور الانتداب على فلسطين تقول : يجب وضع البلاد الفلسطينية في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية تساعد على إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

فإذا نظرنا إلى الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تسود لبنان رأينا أنها تساير ما فى صك الانتداب ، بفارق هو أنه بدلاً من أن يكون ذلك فى فلسطين كان فى لبنان ، وبدلا من أن يكون لليهود كان للمسيحيين : أى وضع لبنان فى ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية تساعد على إنشاء الوطن القومى المسيحى فى لبنان. ويؤيد هذا ما صرّح به المطران مبارك المارونى أثناء الحرب الفلسطينية الأخيرة حيث قال : إنى أؤمل أن أرى قريباً وطناً قومياً لليهود فى فلسطين ، ووطناً قومياً للمسيحيين فى لبنان . وغير ذلك من التصريحات الكثيرة المؤيدة لذلك .

ولقد كثرت الهجرة بين المسلمين من لبنان ومن منطقة البقاع بشكل خاص. حتى أصبحت ترى قرى بأكملها ليس فيها إلا الكهول والعجائز ، أما باقى أهلها فقد رحلوا عنها إلى المهجر .

٤ — الحالة السياسية : لبنان جمهورية نيابية . وفى عهد العثمانيين كان ينقسم إلى ولاية بيروت ومركزها بيروت ويحكمها وال تعينه الحكومة العثمانية . وولاية جبل لبنان ومركزها المعلّقة — قرب مدينة زحلة — ويحكمها وال أيضاً . وكان هذان القسمان يسميان لبنان الصغير . وبعد الفتح الفرنسى جاء الجنرال « غورو » القائد الفرنسى المحتل ، واقتطع من سوريا أربع محافظات — مديريات — وضمها إلى لبنان. وهذه المحافظات هى : طرابلس الشام ، والبقاع ، وصيدا ، وصور . وصار لبنان ، بعدها يسمى لبنان الكبير ، وألغيت ولاية بيروت وولاية جبل لبنان وصارت عاصمة الجميع بيروت . ولا زالت بعض هذه المحافظات لا تعترف بالضم وتطالب بالرجوع إلى سوريا . استقل لبنان عام ١٩٤٣ بعد اضطرابات أدّت إلى خروج الجيش البريطانى والجيش الفرنسى باتفاق بينهما ؛ ولكن النفوذ الفرنسى لا زال كبيراً جداً بسبب حب الطوائف النصرانية لفرنسا حتى إنهم تعارفوا على تسمية فرنسا (الأم الحنون) ،

وللإنجليز نفوذهم أيضاً . وقد دخل النفوذ الأمريكي مؤخراً ونظم له أتباعاً ومناصرين وأصبح ينافس الإنجليز والفرنسيين لأنه (نفوذ غني) .

وفي لبنان جاليات أجنبية كثيرة جداً ، وفيه تيارات سياسية كثيرة جداً أيضاً ، وفيه مراكز خطيرة للجاسوسية العالمية ، أخطرها على الترتيب : التجسس الفرنسي — التجسس الصهيوني — التجسس الإنجليزي — التجسس الأمريكي — التجسس الروسي . وهناك مراكز جاسوسية لدول أخرى إلا أنها ليست في خطورة هذه المراكز. ويدير حركات التجسس السفارات والمفوضيات . ومن أشهر مراكز التجسس في لبنان : الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية ، ثم الفنادق الأجنبية الكبيرة . وقد تعجب إذا علمت أن كل سفارة أو مفوضية تحشد عشرات الموظفين ولا عمل لهم إلا التجسس . وإذا سألت عن أعمالهم في السفارات قالوا لك إنهم : ملحقون صحفيون أو ثقافيون أو تجاريون أو غير ذلك من الأسماء المزورة طبعاً .

٥ — الحالة الثقافية : نسبة التعليم في لبنان عالية جداً وخصوصاً في المدن والمصايف ، وهي صاحبة أعلى نسبة بين الدول العربية . وليس في لبنان جامعة حكومية ؛ إنما فيها كليات تبشيرية تشتهر منها : الجامعة الأمريكية ، والجامعة اليسوعية ، وكلية الحكمة . ومدارس للفرندز والفرير . والتعليم الديني ممنوع في المدارس الحكومية اللبنانية . وقد قام المسلمون أخيراً بإنشاء مدرسة اسمها : مدرسة المقاصد الإسلامية ، تعتني بتدريس الدين والتاريخ العربي الإسلامي بالإضافة إلى العلوم الحديثة ، وقد كثرت فروعها في المناطق الإسلامية .

٦ — المنظمات والأحزاب : في لبنان أحزاب وهيئات كثيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف . وتشتهر من هذه المنظمات : جماعة عباد الرحمن ؛ وهي جماعة أنشئت منذ عدة سنوات ومركزها في بيروت وتدعو إلى الرجوع للإسلام الصحيح بكل أسسه وتعاليمه ، فهي تتفق ودعوة الإخوان المسلمين في جميع آرائها وبرامجها ؛ حتى إنك لتقرأ نشرة أو رسالة من مطبوعات جماعة عباد الرحمن فتخرج منها وأنت متيقن أنك تقرأ رسالة من رسائل الإخوان المسلمين . وقد قامت هذه الجماعة فالتف حولها المسلمون لأنهم وجدوا أنهم في حاجة لها ، وانضم كثير منهم إليها . وهي الآن في مركز قوي جداً والحمد لله .

ثم هناك منظمة تسمى : الكتائب اللبنانية ؛ وهى منظمة نصرانية صرفة تسعى إلى الاستيلاء على الحكم فى لبنان ، ولها منهاج نصرانى خطير ، وقد حاولت القيام بانقلاب عام ١٩٤٩ ، ولكنها فشلت بسبب انكشاف الخطة قبل وقت التنفيذ . وعند هذه المنظمة أسلحة كثيرة ولها نشاط سرى وأعضاء كثيرون فى مختلف المناطق النصرانية .

وفى لبنان حزب شيوعى متوسط القوة ، ويقوم بحوادث شغب كثيرة ، ويستغل كل حادث فى لبنان ليحدث اضطرابات فى البلاد .

ويجدر بنا أن نذكر أنه كان فى بيروت فرع لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٤٦ إلا أنه كان ضعيفاً ، وقد صدر قرار بحله عام ١٩٤٨ عند ما قامت الحكومة اللبنانية بحل جميع المنظمات فى لبنان بسبب أحداث سياسية داخلية ، وبسبب وقوع مصادمات بين الحزب السورى القومى وبين منظمة الكتائب اللبنانية .

ومن بين هذه الأحزاب التى كان لها خطرها فى لبنان وسوريا الحزب السورى القومى الذى كان يرأسه أنطون سعاده ، وله مبادئ غريبة تقول إن سوريا فينيقية وليست عربية ولا إسلامية ، ويعنى بسوريا أرض لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، ويريد أن يعود بها إلى سوريتها أى فينيقيتها . وقد ضعف نشاطه بعد إعدام زعيمه فى لبنان .

* * *

وبعد ، فإن لبنان بلد عربى إسلامى يحتل مركزاً جغرافياً ممتازاً على البحر المتوسط ، ومركزاً سياسياً مهمًّا فى منطقة الشرق الأوسط يتعرض لتيارات سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ، رسمها الأعداء بإتقان ودقة ، وقاموا بتنفيذها من زمن بعيد ، غايتها الأولى والأخيرة إضعاف الثقل الإسلامى فى لبنان ، وعزله عن الدول العربية والإسلامية ليؤولوا به إلى المصير الذى آلت إليه فلسطين ، وقد لا يمضى وقت طويل حتى نرى نكبة إسلامية فى لبنان تشبه نكبتنا فى فلسطين . وعلينا أن نتنبه قبل فوات الأوان لما يجرى فى هذا البلد الشقيق لنعمل على إنقاذه مما هو فيه بإذن الله وتأييده . والله المستعان وهو ولى التوفيق .

فى أفق العالم الإسلامى

* خمس حقائق فى قضية المغرب

* الصراع الذرى

خمس حقائق فى قضية المغرب :

عادت تونس تحتل الصفحات الأولى من الصحف بمناسبة الحوادث الأخيرة التى قام بها الوطنيون التونسيون ، والتى تدل على أن المغرب العربى المسلم رغم طول احتلاله ما زال ينبض بالحياة ويختلج بالعزة والإيمان ... والمغرب هو الجناح الأيسر للنسر الإسلامى العظيم ، وقد تكاتفت قوى الاستعمار والتبشير وتألبت على انتزاعه قطعة قطعة ، وسارت فى تنفيذ مؤامرة مرسومة لقطع كل صلة لهذا المغرب المسلم ببقية الجسد المسلم ، وتحويله عن دينه وعقيدته الإسلامية ، واستبدال لسان أعجمى فرنسى بلسانه العربى المبين .

ويعنينا فى هذه السطور أن نذكر أمام قراء « المسلمون » عدة حقائق لصيقة بقضية المغرب العربى :

١ — الحقيقة الأولى : أننا نؤمن إيماناً واعياً بأن قضايا العالم الإسلامى المغلوب على أمره ضد قوى الاستعمار والاستنزاف الغربى لاتجدى فى حلها المؤتمرات أو المنظمات الدولية أو المساعى الدبلوماسية ، وإنما هناك طريق واحد مستقيم واضح ولو أنه ملىء بالصخور والأشواك : هو طريق الكفاح المسلح وإرخاص النفس والمال ، فلابد ليخرج المستعمر من أى بلد من أن تقنعه لغة الأرقام التى لا تكذب بأن استعماره صفقة خاسرة ، وأرباحه التى يجنيها لاتوازى خسائره التى يتكبدها ... وفى ظل هذا المعنى نرى أن قضايا البلاد الإسلامية « قضايا محلية » ونعنى بهذا أنها لابد وأن تحل داخل الحدود وبين الجدران ، وأن الطلقات الأولى والأخيرة لابد وأن تدوى هناك ... ثم يأتى من بعد هذا كله دور الشعوب والحكومات الإسلامية فى إسداء العون المادى والأدبى

ولا يعوزنا الدليل على ما نقول ... فقد عرضت قضايا المغرب عدة مرات على مجلس الأمن والجمعية العمومية لهيئة الأمم ، وكانت المحاولة الأخيرة فى أكتوبر من العام الماضى ، وفى كل مرة خذلت القضية — وكان الغريب ألا تخذل — وهذا طبيعى ما دامت جبهة الاستعمار هى أقوى الجبهات فى هذه المنظمات الدولية .

٢ — الحقيقة الثانية : هى أن الخلاف بين أحزاب المغرب خلاف يدور على مسائل خاصة بأشخاص قادة هذه الأحزاب وحزازات وإحن تطفو بها صدورهم ، وبها اصطبغت الأفكار والمبادىء ، فقامت أحزاب تعارض أخرى وانتقلت المعركة من جهاد ضد المستعمر إلى مهاترات حزبية بين أبناء المغرب تورطوا فيها بتأثير قادة الأحزاب .

ونحن نذكر ماضى الحركة الوطنية المغربية بالفخر والحسرة . . فقد كانت الحركة الوطنية بزعامة القادة المخلصين أمثال الثعالبى — رحمه الله — تجمع شمل المغاربة جميعاً وتسلك بهم طريق الجهاد السليم ، ولكن سرعان ما انحرفت إلى طرق السياسة والمفاوضات وأنصاف الحلول ،

فتميعت الحركة الوطنية وتحطمت وحدة الشعب ، وآلت الحركة الكفاحية فى المغرب إلى هذا المصير المؤلم ، فقدم معظم الزعماء الحزبيين إلى القاهرة مؤثرين السلامة ، حيث طاب لهم العيش فى رحاب الجامعة العربية « الضيافة » ، وقنعوا من الجهاد بخطبة رنانة أو برقية احتجاج أو رحلة يطوفون فيها بالعواصم فى الشرق والغرب للدعاية لقضية المغرب وجمع التبرعات باسم المغرب . . ! !

ولكى لا نلقى القول جزافا ونأخذ البعض بجريرة الآخرين نسجل فى هذا المقام أن نفراً قليلا من هؤلاء الزعماء مازال يعمل محتسبا مخلصاً دائباً فى صمت وعزوف عن الدعاية .

٣ — الحقيقة الثالثة : أن قضية المغرب قضية واحدة وليست قضايا ثلاثا أو أربعا ، ويجب أن ينسق المغاربه جهودهم ويمدوا المدة للانتقاض مرة واحدة فى شتى أنحاء المغرب ، فعدوهم واحد والعدوان عليهم واحد وإن تغيرت أسماؤه ، ومطلبهم واحد ، وهم جميعاً أمة واحدة يجمعها الدين واللسان والجنس والتاريخ والمصالح والأهداف ، ومن الخطأ البين أن تشتعل الثورة فى تونس بينما يخلد الجزائريون والمراكشيون إلى السكينة والهدوء : فيحشد المستعمرون قواهم ويركزونها فى مواطن الثورة فتشتد وطأتهم على الوطنيين ، وسرعان ما تنفد طاقة الثورة فى تونس فإذا بها تندلع فى مراكش .. ويتكرر الخطأ مرة ثانية وثالثة وهكذا ... دون أن يستفيد المغاربة منه .

٤ — الحقيقة الرابعة : أن الولايات المتحدة الأمريكية وهى زعيمة جبهة الاستعمار هى شريكة لفرنسا وأسبانيا فى استعمارهما المغرب ، فقد فطنت فى الشهور الأخيرة إلى الأهمية الاستراتيجية لبلاد المغرب فأقامت عدة مطارات ضخمة بمراكش كلفتها أربعمائة مليون من الدولارات ، كما تواصل الشركات الأمريكية أعمال التنقيب عن البترول وغيره من المعادن فى أنحاء مختلفة من المغرب ، وقد أصبح جلياً أن الدول الاستعمارية القديمة مثل فرنسا وقد خرجت محطمة ومدينة من الحرب الأخيرة لم تعد تقوى على الصمود وحدها فى وجه حركات التحرير الوطنية التى انتشرت عدواها فى البلاد المستعمرة أو نصف المستعمرة ، ولكن الولايات المتحدة زعيمة العالم « الحر » تضغط على هذه الدول مستغلة تفوقها الاقتصادى عليها وحاجتها إليها ، لكى لاتفك قبضتها عن الشعوب المستعمرة ، وتغدق عليها ألوف الملايين من الدولارات وأطنان المعدات الحربية لتواجه الشعوب التواقة للحرية بالحديد والنار والمثل الواضح هو الهند الصينية ، وقد فصلنا القول فيه فى عدد سابق .

وهذا هو السر فى أن المندوب الأمريكى فى اللجنة السياسية التابعة للامم المتحدة قد أعلن عند مناقشة المسألة المراكشية فى العام الماضى أن حكومته لاترى أن هذه المسألة تهدد الأمن والسلم العالميين .

فإلى الوطنيين المغاربة نوجه القول : حذار من أمريكا .. فإنها أس البلاء !

٥ - أما الحقيقة الخامسة : فنوجه إليها الحكومات والشعوب العربية والإسلامية . .

فنقول إن قضية المغرب لم تنل بعد شيئا من الاهتمام اللائق بها من الحكام والشعوب وهم فى عدم اهتمامهم هذا متفاوتون .. ويكفى أن نذكر هؤلاء وأولئك بأن زمن الحدود والفواصل والقوميات والنعرات قد ولى ولن يعود ، وأن العالم قد أصبح اليوم جسداً واحدا ، وأن دول الاستعمار تعمل ضد الشعوب جبهة واحدة وبخطط متسقة ، وأنها تتقارض العون المادى والأدبى كلما تأزمت بإحداها الحال وتمرد عليها شعب يريد التحرر والحياة ... وإذا

كان حال قوى الشر والاستعمار هكذا أفلا يكون أولى بالشعوب الإسلامية المستضعفة أن تؤلف من أشلائها المبعثرة وقواها المتنافرة جسداً واحداً يواجه جرائيم التحلل والضعف ويقف أمام عالم الغرب المتربص وقفة دفاع عن النفس والدين والمثل ؟ ! ولم لا تتحد على الحق وقد اتحد أعداؤها على الظلم والفتك والعدوان بها! . لقد آن الأوان للعملاق الإسلامي الممدد بين المحيطين الهادى والأطلسي أن يقف على قدميه ويرفع رأسه .. ثم يتقدم ركب البشرية !

بقيت كلمة إلى الجامعة العربية نكتبها إبراء للذمة وإعذاراً إلى الله وإلى الناس :

إن المجاهدين المغاربة في حاجة إلى سلاح يسددونه إلى صدور المستعمرين ، وإلى دواء يضمدون به جراح المصابين ، وإلى عون يخلفون به الشهداء والمجاهدين في أسرهم التي يعولونها . . وكل هذا أو بعضه أولى — أو هكذا نظن — من السادة زعماء الأحزاب المغربية ضيوف القاهرة الميامين ؟

الصراع الذرى

منذ قامت الولايات المتحدة بأول وأبشع تجربة ذرية شهدها العالم الأرضى فضربت هيروشيما ونجاساكى في أغسطس سنة ١٩٤٥ بالقنابل الذرية فقتلت وشوهت وعقمت ألوف الأنفس ودمرت المدينتين تدميراً تاماً ، منذ ذلك التاريخ والمعسكران اللذان يتنازعان السيطرة والوصاية يجنون في صنع الأسلحة الذرية ثم الهيدروجينية فالميكروبية ، وهم الآن بصدد صنع قنبلة السكوبالت ، ومنذ ذلك التاريخ أيضاً والعالم يعيش على فوهة بركان في رعب هائل من هذه الأسلحة ذات التدمير الشامل ، والتي إن استعملت في حرب عالمية قضت على الحضارة البشرية وأحلت بالإنسان أفظع الكوارث والويلات

لغة الأرقام : ومنطق الأرقام وحده يوضح هذه « الهيستيريا » الذرية التي أصيبت بها الدول المتصدرة للزعامة ، فالولايات المتحدة مثلا اعتمدت مليارا واحداً وستين مليونا من الدولارات لميزانية لجنة الطاقة الذرية في السنة المالية التي ستبدأ في يوليه القادم ، واعتمدت كذلك ٣٧٠٠ مليون دولار لنفقات الدفاع المدنى ضد الغارات الجوية — الذرية طبعاً — في السنة المالية نفسها ، ولا تبخل أيضاً حكومة واشنطن أن تنفق مئات الملايين من الدولارات في إنشاء سلسلة من القواعد العسكرية — الجوية خصوصاً — في أرجاء العالم « الحر » ، فقد أنفقت ٣٦٠ مليونا من الدولارات في إقامة مطارين ذريين في جزر أوكيناوا بالمحيط الهادى ، وأنفقت ٣٥٠ مليونا من الدولارات لتنشىء أربعة مطارات ذرية أيضاً في مراكش . وعلى ذكر مراكش فإنا نذكر أن للولايات المتحدة في العالم الإسلامي عدة نقط الوثوب الذرى ، نذكر منها مطار الظهران بالمملكة العربية السعودية ، ومطار الملاحة بليبيا الذى يعد أكبر مطار بمنطقة البحر المتوسط ، والمطارات المنبثة في تركيا ، فضلا عما سينشأ في باكستان والعراق بعد إبرامهما الاتفاق العسكرى مع أمريكا . . ولا غرابة بعد هذا كله أن تبلغ النفقات العسكرية ما يوازى ٧٤٪ من الميزانية الأمريكية .

نحن ندفع الثمن : ومن الطبيعي أن هذه الألوف من الملايين تبهظ كاهل دافع الضرائب الأمريكى ، وتصيب الاقتصاد الأمريكى كله بأزمة خانقة ، فلا تجد الدولة الأمريكية بدا — لكى تعوض ما تنفقه في أغراض الحرب — من أن تفرض وصايتها المالية على الدول المتخلفة أو التي لم تبلغ في تطورها الاقتصادى مثل ما بلغت الولايات المتحدة ، فتجعل منها أسواقا تحتكرها تغمرها بالسلع الاستهلاكية كالقمصان النايلون الملونة والأشرطة السينمائية وشراب الكوكا كولا والبيبسى

كولا والثلاجات والسيارات الفاخرة ، دون السلع الإنتاجية كالآلات والمحركات اللازمة لقيام نهضات التصنيع التى هى نقطة التحول وأساس التطور فى حياة الشعوب ، إذ لا يرضى الاحتكار الأمريكى أن تنتج هذه البلاد سلعا تنافس السلع الأمريكية وتحرمه من أرباح الإحتكار الطائلة ، ومن هنا يحرص على أن تبقى هذه البلاد المتخلفة زراعية أورعوية كما هى ، فتظل أشبه شىء ببقرة حلوب ترعى فى مصر أو باكستان مثلا وتدر درها فى أمريكا .

الإشعاع الذرى: ونحن نعرض هذه الحقائق بمناسبة تجارب تفجير القنبلة الهيدروجينية التى أجرتها الولايات المتحدة منذ مارس الماضى فى جزر بيكينى ورغم إخلاء المنطقة المحيطة بمحل التفجير ، إلا أن الرياح حملت الرماد الذرى إلى حيث توجد سفينة صيد يابانية على مبعدة ١٥٠ كيلو مترا فأصيب بحارتها — وعددهم إثنان وعشرون — بحروق شديدة وضعفت قواهم البصرية إلى حد كبير ، ولم تنج شحنة الأسماك من الإشعاع الذرى . . بل لقد كانت النكبة أوسع مدى ، فقد أصيب صيادو تسع سفن صيد يابانية وحمولتها من الأسماك بالإشعاع الذرى بينما كانت على مبعدة ألفى ميل من مكان الانفجار . . . وأفظع من هذا كله أن جزيرة كيوشو باليابان هطلت عليها أمطار غزيرة ثبت من تحليل الخبراء أنها مشبعة تماما بالإشعاع الذرى ، مما أدى إلى أن تناشد الحكومة السكان أن يمتنعوا عن استعمال مياه هذه الأمطار فى طعامهم أو شرابهم ، ولهذا يعيش ملايين اليابانيين فى رعب وفزع خشية أن يكون الإشعاع الذرى قد لوث مياه بحارهم وما فيها من أسماك هى عماد غذائهم . . . ذلك أن الإشعاع الذرى ينتشر بفعل الرياح والسحب فى مساحات هائلة مما يهدد الإنسان فى كل مكان — حتى فى أمريكا نفسها ! — فى حياته وطمأنينته .

وإذا كنا قد استعرنا المثال من الولايات المتحدة فإن هذا لايعنى براءة الاتحاد السوفيتى من هذه الجريمة ، وإنما تعوزنا المعلومات عن تجاربه التى يجريها فى مجاهل سيبريا وراء الستار الحديدى فى منجاة من العيون والآذان ، لولا ما تسجله المراصد من حدوث هذه الانفجارات الذرية .

لقد أسمعت لو ناديت حيا . . ! : ولقد كان من جراء تلك الآثار المفزعة لتجارب التفجير الذرية والهيدروجينية أن تيقظت ضمائر بعض العلماء والساسة فتصايحوا مهيبين بالحكومات حظر استعمالها فى الأغراض العدوانية ، فصرح « أينشتين » ! بخشيته إن نجحت القنبلة الهيدروجينية أن يتسمم الهواء بالإشعاع الذرى ، ويصبح فى طوق العلم أن يقضى على جرثومة الحياة فى الأرض ، وصرح مستر « مارتن » مستشار الدفاع فى حكومة استراليا : لقد بدأت أشعر بالقلق من القنبلة الهيدروجينية . . لقد كان الانفجار أعظم مما توقعناه ، حتى لقد كان العلماء أنفسهم أشد شعورا بالقلق من سواهم ، وتحدث الفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » عما أسماه العصر الذرى قائلا : إن القنبلة الهيدروجينية وما قد يعقبها كقنبلة الكوبالت قد أثبتت أنه إذا شئت أن تحيا فدع غيرك يحيا مثلك ، وإلا فالموت نصيبكما معاً .

أيها المسلمون ! إن التورط مع أى المعسكرين فى صراعه ضد المعسكر الآخر جريمة مهولة ، وخيانة لله ورسوله والمسلمين ، وإلقاء بأنفسنا إلى التهلكة وتعريض لبلادنا أن تكون ميدانا لحرب ذرية مبيدة . . ولقد من الله علينا إذ جعلنا أمة لاشرقية ولاغربية . . أمة وسطا . . لتكون شهداء على الناس فلنصمم على ألا نخوض حربا ، ولنعلم أن الأحلاف العسكرية والمعونات الفنية إنما هى ربط لنا بعجلة كتلة الاستعمار الغربية لنخوض معها حربا كما فعلنا فى الحربين السابقتين دون أن تنال تضحياتنا الفادحة ثمناً سوى العقوق والخسف والإذلال .

فاحرصوا إذن على الحياد حرصكم على الحياة . . لأن الحياد هو الحياة !

(*b*) Makes cleanliness and sanitation next to godliness.

(*c*) Teaches self restraint and discipline through making worship a part of the day's business, through fasting in the season of Ramadan, and through advocating restraint and moderation in the enjoyment of the good things of the earth.

Islam is, above all, a great Brotherhood of Man, faithful and believing, dedicated to the service of God on earth, striving always to unite Mankind in righteousness, justice and equality before the Throne of the Merciful and Compassionate God.

ACTION

The only object of human life is action. Where the Quran says that *jinn* and man were created to worship God - worship also means action. Every man is, on a small scale, a creator. And to destroy these creative powers in man is a sin. The prophet came into the world to tell the people - this is good and this is bad. Carry on your struggle without the least thought of success or ill-success.

IQBAL.

WHAT ISLAM MEANS TO ME

By Dr. Mustafa Khalidy

Here is a frank statement of the practical spiritual meaning of Islam in the modern world by a busy practicing physician, in the city of Beirut, Lebanon.

ISLAM is a religio-social Institution that leads to the happiness of the individual, the community and the world.

1 — It defines Man's relation to his Creator and satisfies his deepest spiritual yearnings. It teaches the Oneness - the Indivisible Unity of God, and it makes its supplication for forgiveness and grace directly to Him, the Merciful, the Compassionate. A Muslim is he who seeks Divine Guidance, submits to the Will of God, and communes with the Fountain of Mercy by frequent daily prayers.

2 — Islam defines Man's relation to his family by enjoining upon the children a tender love and respect for their parents and responsibilities towards their relatives.

3 — Man's relation to Humanity in general is set forth in Islam by:

(*a*) Making righteousness the sole measure of Man's nobility.

(*b*) Proclaiming complete equality between all nations and peoples without regard to race or color.

(*c*) Teaching the equality of individuals, regardless of class or sex; defining the rights of widows and orphans and providing for their care; emancipating slaves and freeing serfs.

(*d*) Enjoining kindliness, hospitality and charity, with particular attention to the poor, the stranger, and the defenseless; ordaining kindness to animals.

4 — Islam is a practical religion which:

(*a*) Encourages and protects learning and enlightenment; Islam preserved, developed, and transmitted to the western world the priceless heritage of Greek civilization which had been lost to the West in the Dark Ages.

dynamic, springing perpetually from the heart, shining in the mind and grasping the whole life. Its taste to the believer was fine and sweet. Look at God's own testimony regarding the true believers and see how He compares them with the unbelievers.

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا .

"Is he who was dead and We gave life and set for him a light whereby he walketh amongst men, as him whose similitude is in utter darkness from which he can never come out ?

Mark, how belief means life and light dispelling death and darkness. Can we claim, dear brother, that Muslims of today have this life and light ?

The answer certainly is no. Otherwise we would not have found ourselves to be slaves everywhere. Yes, my dear, the nation with life and light can never be a slave, God says :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

"And never would God make your faith of no effect for God is to mankind most surely full of kindness, most merciful."

Not for our slavery and servility alone has this lack of faith been responsible, but in fact it has been the source of all calamities covering the wide earth. Had we kept sincere to the divine message entrusted to our care none of our disasters would have come to afflict us, and history itself would have come to be written differently. For God has said :

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

" ..... A book which we have revealed unto thee in order that thou mightest lead mankind out of the depths of darkness into light.

(to be continued).

to keep for you any "love" in it. I will leave you, praying for you to see the light of Truth, or then - and not till then - we can be friends, true friends throbbing with the noble sentiments of true hearts, hearts which cannot ignore their Creator and dare not disobey their Lord."

Happiness and Duty

If you succeed, my brother, to think, decide, repent join clean fellows and change bad companions, then you have crossed the very hurdles of life. When your inner world is ruled with high ideals and settled on clear faith, and when your heart knows the joy of true fortitude, you will realize that happiness, which could only be dreamed of by philosophers. Happiness is not a robe that can be bestowed upon from outside. No, it is something that flows out from inside. It is the Inspiration of Reality when it is seen absolutely pure and clear. When you exert yourself to reach the standard where you begin to realize the company of God, you will look on the earth as a very slight creation worthy of being trampled upon under your feet....... You will see God's will manifested in everything. You will see Him inspiring the whole universe with prefect wisdom and endless grace. A gaze to the sky, a look on the earth, a fleeting image within your mind, an incident in your life, all these will remind you of God and among all these you find Him intimately close to yourself. You will have an inner court with a permanent session guarding your soul and verifying your deeds. You will find it a very sweet thing to avoid a sin, even though the pain of avoiding it may itself be accute. You will begin to feel an unimaginable happiness in controlling your temptations. This is the happiness that kindles up your being here, and preserves its glow in the hereafter. This is the happiness that was described by some followers of the Prophet, peace be on him, in these words: "With our belief in God, we are in a state of happiness, which if the kings of the world only knew, verily they would fight us with all their means to secure it". Such a happiness exists nowhere else but in the heart. But where, O, where! are the hearts and the happiness of Muslims. The great majority of the Muslims give no sign of such happiness. Have their hearts ceased to beat ?!

The kind of Islam that most of us embrace today does not bear even a show resemblance to the Divine. Islam revealed from Heaven on the wing of (Jibrail). That real Islam was something

WHAT ARE YOU ?

By the Editor

— 7 —

If this is the object of life, then it is due to it, my dear, that we have to determine how to choose our fellows and how to shape our friendship. Our Prophet, peace be on him, was asked once: "What is the person that can be the best friend". He replied: "He who helps you when you remember God, and reminds you when you forget Him." Then he, peace be on him, was asked "And which friend is the worst ?" He replied: "He who does not help you when you remember God and does not remind you of God when you forget." Then he was asked: "Who is the best among people" ? He replied, "He who when you look at, you remember God". Yes, my dear brother, that is the measure that must guide your friendship and govern your feelings towards all who surround you. And let us not forget, dear brother that there were many pure like angles and innocent like babes before thy contacted some bad friends who latter turned them to evil and surrendered them completely to Hell. Even with myself and yourself, it might have happened that such sort of friendship robbed us of some dear period of our life and made us forget our cherished principles. To leave an old friend is, no doubt, somewhat cruel. But is it not crueller still, in order to keep company with a degenerated friend in this short period of life, to part company with your own soul and allow it to be doomed to eternal perdition in the everlasting life hereafter ? Such a friend shall in the life to come be your greatest enemy and your enmity then shall be equal in proportion, if not more in intensity, to your friendship on earth. God says:

الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ

"Friends, on that day will be foes one to another, save those who were God fearing."

Invite your friends to be with you on the right path, and that is your duty towards them as a friend. If they refuse then say it to them, "I cannot value you above God. I have been ordered to submit all my heart to Him and thereby it has become impossible

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات العدد الثامن

مطابع دار الكتاب العربي بمصر